سيغموند فرويد

مختصر التحليل النفسي

ترجمة:

جورج طرابيشي

دار الطليعة - بيروت

مُختصر التحليل النفسيّ

بيروت ـ لبنان
ص . ب . ١١١٨١٣
تلفون : ٣١٤٦٥٩/٣٠٩٤٧٠

الطبعة الاولى

شباط (فبراير) ١٩٨١

الطبعة الثانية

اذار (مارس) ١٩٨٦

سيغموند فرويد

مُختَصَر التحليل النفسيّ

ترجَمَة:
جُورْج طَرابيشي

دارُ الطّليعة للطّباعة وَالنشر
بيروت

هذه ترجمة كتاب

ABRÉGÉ DE PSYCHANALYSE

PAR
SIGMUND FREUD

PRESSES UNIVERSITAIRES DE FRANCE

7e EDITION
PARIS 1973

تنبيه

مختصر التحليل النفسي بدأه فرويد في تموز ١٩٣٨ في « منفاه » بلندن ، ولكنه لم يتمه ، إذ حضرته الوفاة في ٢٣ ايلول ١٩٣٩ . ولم يتخط المؤلف القسم الثالث ، واننا لنجهل ما كانت مقاصده بصدد تتمة الكتاب . كذلك فإن الفصل الثالث ، خلافاً لسائر فصول الكتاب، كتب بأسلوب مختصر ، فكان على اللجنة المشرفة على طبع مؤلفات فرويد الكاملة أن تعيد بناء عدد كبير من الجمل .

اما عنوان القسم الأول فقد أخذ عن نسخة لاحقة (تشرين الأول ١٩٣٨) من المخطوط نفسه .

« م »

توطئة

الهدف من هذا المؤلف المقتضب جمع مذاهب التحليل النفسي لعرضها عرضاً تقريريا ان جاز القول ، في اوضح شكل ممكن واكثره تركيزا . ولم نرمِ قط ، بعملنا هذا ، الى كسب ثقة او انتزاع اقتناع .

ان تعاليم التحليل النفسي تنهض على عدد لا يقع تحت حصر من المشاهدات والتجارب ، ومن لم يتحقق ، في نفسه أو لـدى الآخرين ، من هذه المشاهدات لا يملك ان يصدر عليها حكما مستقلا .

القسم الأول

طبيعة النفسية

الفصل الأول
الجهاز النفسي

ينهض التحليل النفسي على مسلمة اساسية يقع على عاتق الفلسفة نقاشها ، وان تكن نتائجها تبرر قيمتها . فما نسميه بالنفسية (أو الحياة النفسية) نعرف عنه شيئين : أولاً العضو البدني لهذه النفسية ، مسرح عملها ، أي المخ (او الجهاز العصبي) ، وثانياً افعالنا الشعورية التي لنا بها معرفة مباشرة والتي ليس لأي وصف ان يزيدنا بها علماً . أما كل ما يقع بين هذين القطبين فيبقى مجهولا لنا ، وان يكن بينهما ارتباط ما فليس من شأنه أن يمدنا بأكثر من تحديد دقيق لموضع السيرورات الشعورية ، من غير أن يتيح لنا فهمها .

وتتصل فرضيتانا بهذين الحدين او هاتين البدايتين لمعرفتنا . والفرضية الأولى ذات صلة بتحديد الموضع . فنحن نسلم بأن الحياة النفسية وظيفة لجهاز نعزو اليه امتدادا في المكان ونفرض أنه مؤلف من أقسام عدة . ومن ثم فإننا نتصوره ضربا من مقراب أو مجهر أو شيئا من هذا القبيل . وبناء هذا التصور واستكماله حدث علمي جديد ، وان كانت محاولات مماثلة قد جرت في هذا السبيل .

ان دراسة تطور الافراد هي التي اتاحت لنا ان نعرف هذا الجهاز النفسي . ونحن نطلق على أقدم هذه المناطق او الهيئات النفسية اسم **الهذا** ؛ ويشمل مضمونه كل ما يحمله الكائن الانساني معه عند ولادته ، كل ما هو متعين في الجبلّة ، أي في المقام الأول الدوافع الغريزية الصادرة عن التنظيم البدني والتي تجد في الهذا ، من خلال

أشكال مجهولة لنا ، أول نمط من انماط التعبير النفسي[١] .

وتحت تأثير العالم الخارجي الواقعي المحيط بنا ، يطرأ على شطر من الهذا تطور خاص . فبدءاً من الطبقة اللحائية الاصلية المزودة بأعضاء قادرة على تلقي التنبيهات ، وكذلك على اتقائها ، قام تنظيم خاص وما لبث ان صار وسيطا بين الهذا والخارج . وانما على هذا الشطر من نفسيتنا نطلق اسم **الأنا** .

الخصائص الرئيسية للأنا : بنتيجة العلاقات التي تكون قد قامت بين الادراك الحواسي والافعال العضلية ، يتأتى للأنا ان يتحكم بالحركات الإرادية. ومهمته هي حفظ الذات ، وهو يؤدي هذه المهمة ، فيما يتصل بالعالم الخارجي ، بتعلمه كيف يتعرف التنبيهات ، وبمراكمته (في الذاكرة) الخبرات التي تمده بها هذه التنبيهات ، وبتحاشيه التنبيهات المفرطة في قوتها (بالهرب) ، وبتوصله اخيراً الى تعديل العالم الخارجي على نحو موائم ولصالحه (النشاط) . أما في الداخل ، فهو يتصدى لمواجهة الهذا باكتسابه السيطرة على مطالب الدوافع الغريزية ، وبتقريره ما اذا كان من الممكن إشباع هذه الدوافع أو ما اذا كان من الانسب إرجاء هذا الاشباع الى حين مؤاتٍ او ما اذا كان من الواجب خنقها أصلاً . ويخضع الأنا في نشاطه لاعتبار التوترات الناجمة عن تنبيهات الداخل أو الخارج . فزيادة التوتر تسبب بالاجمال **ألماً**، ونقصانها تتولد عنه لذة . بيد أن الألم أو اللذة غير منوطين في أرجح الظن بالدرجة المطلقة للتوترات ، بل بالاحرى بوتيرة تغيراتها . والأنا ينزع الى اللذة ويسعى الى تحاشي الألم . وكل زيادة منتظرة ، متوقعة ، في الألم تقابلها **إشارة حصر** ، وما يطلق هذه الاشارة ، من الخارج أو من الداخل ، يسمى **الخطر** . وبين الحين والحين ، يقطع الأنا الروابط التي تربطه بالعالم الخارجي ويخلد الى النوم حيث يجري على تنظيمه تعديلاً مهماً . وتتيح لنا حالة النوم

(١) ان هذا القسم الاقدم عهداً من اقسام الجهاز النفسي يبقى مدى الحياة أهمها إطلاقاً . ودراسته هي التي كانت بمثابة البداية للمبحث التحليلي النفسي .

أن نلاحظ أن نمط التنظيم هذا يتمثل في توزيع خاص معين للطاقة النفسية .

وعلى امتداد فترة الطفولة المديدة التي يجتازها الفرد الناشىء ويكون عماده في اثنائها على والديه تتشكل في أناه ، كما بضرب من الترسب ، هيئة خاصة تكون بمثابة امتداد للتأثير الوالدي . هذه الهيئة هي **الأنا الأعلى** . وبقدر ما ينفصل الأنا الأعلى عن الأنا أو يعارضه ، يشكل قوة ثالثة لا مناص للأنا من أن يعمل لها حساباً .

ويعد صحيحاً كل تصرف يصدر عن الأنا ويلبي مطالب الهذا والانا الأعلى والواقع معاً ، وهذا ما يحدث حين يفلح الأنا في التوفيق بين هذه المطالب المتباينة . ومن الممكن دوماً وأبداً فهم خصائص العلاقات بين الأنا والأنا الأعلى اذا ارجعناها الى علاقات الطفل بوالديه . ومن المحقق ان ما يؤثر في الطفل ليس شخصية الأهل وحدهم ، بل كذلك ، وبوساطتهم ، تأثير التقاليد العائلية والعرقية والقومية ، علاوة على مقتضيات الوسط الاجتماعي المباشر الذي يمثلونه . ويتأثر ايضاً الأنا الأعلى للطفل ، في اثناء تطوره ، بخلفاء الأهل وبدائلهم ، وعلى سبيل المثال بعض المربين وبعض الاشخاص الذين يمثلون في المجتمع مثلا عليا موقرة . ويتضح لنا ان الهذا والأنا الأعلى ، رغم تباينهما الاساسي ، تجمع بينهما نقطة مشتركة ، اذ يمثل كلاهما بالفعل دور الماضي ؛ فالهذا يمثل أثر الوراثة ، والأنا الأعلى أثر ما تلقاه عن الآخرين ؛ بينما يتعين الأنا في المقام الأول بما خبره بذاته ، أي بالعارض والراهن .

ان هذا المخطط العام للجهاز النفسي يصدق أيضاً على الحيوانات العليا التي بينها وبين الانسان وجه شبه نفسي . ويجدر بنا ان نسلم بوجود أنا اعلى حيثما يتعين على الكائن الحي أن يمر في طفولته . كما لدى الانسان ، بفترة طويلة من الاتكال الطفلي . أما تمايز الأنا عن الهذا فواقع لا مماراة فيه .

ولم يعكف علم نفس الحيوان بعد على الدراسة الشائقة التي تبقى هنا متاحة له .

الفصل الثاني
نظرية الدوافع الغريزية

تعبر قوة الهذا عن الهدف الحقيقي لحياة الفرد العضوية وتنزع الى إشباع حاجات هذا الفرد الفطرية . ولا يُعنى الهذا بحفظ الحياة ولا باتقاء الاخطار . فهاتان المهمتان الاخيرتان تقعان على عاتق الانا الذي يتعين عليه ايضاً ان يكتشف أنسب وسيلة وأقلها خطراً للفوز بإشباع ، مع اخذ مقتضيات العالم الخارجي بعين الاعتبار . اما الانا الأعلى ، فعلى الرغم من أنه يمثل حاجات اخرى ايضاً ، فإن مهمته الأساسية تبقى على الدوام كبح الاشباعات .

اننا نطلق على القوى التي تعمل خلف حاجات الهذا الآسرة ، والتي تمثل في النفسية المتطلبات البدنية ، اسم **الدوافع الغريزية** . وهذه الدوافع محافظة بطبيعتها ، رغم انها تشكل العلة الاخيرة لكل نشاط . وبالفعل ، ان كل حالة يبلغها يوما الكائن تنزع الى اعادة فرض ذاتها حالما تُترك . ويسعنا ايضاً ان نميز عددا غفيرا من الدوافع الغريزية ، وهذا ما هو واقع فعلاً . على أن ما يهمنا هو أن نعرف ان لم يكن في الامكان اختزال هذه الدوافع الغريزية العديدة الى عدد محدود من الدوافع الغريزية الاساسية . وقد تعلمنا أن الدوافع الغريزية يمكن ان تغير هدفها (بالنقل) ، وانها قابلة ايضاً لأن ينوب بعضها مناب بعض ، إذ يمكن لطاقة أحد الدوافع ان تتحول الى دافع آخر . وهذه الظاهرة الاخيرة لا تزال منقوصة التفسير . وبعد طول تردد وطول اخذ ورد ، قر قرارنا على التسليم بوجود غريـزتين

أساسيتين فقط : **الايروس**[١] وغريزة التدمير (وتقع في نطاق الايروس غريزتا حفظ الذات وحفظ النوع المتعارضتان ، وكذلك غريزتا حب الذات والحب الموضوعي[٢] ، المتناقضتان بدورهما) . وهدف الايروس إنشاء وحدات متعاظمة الحجم باستمرار بغية صونها ، وبكلمة واحدة ، هدف ربطي . أما هدف الغريزة الاخرى ، على العكس ، فهو فصم الروابط كافة ، وبالتالي تدمير كل شيء . ومباح لنا ان نفترض أن الهدف النهائي لغريزة التدمير إرجاع الحي الى الحالة اللاعضوية ، ولهذا نسميها **غريزة الموت** . فلئن سلمنا بأن الكائن الحي لم يظهر إلا بعد المادة الهامدة ، وأنه منها خرج ، فلا محيد لنا عن الاستنتاج من ذلك أن غريزة الموت تنصاع للقاعدة المتقدم ذكرها والتي تنص على ان كل غريزة تنزع الى اعادة حالة سابقة . اما بالنسبة الى الايروس ، غريزة الحب ، فليس لنا أن نطبق عليها القاعدة عينها لأننا لو فعلنا لكان هذا معناه اننا نصادر على ان الجوهر الحي ، بعد ان شكّل في البداية وحدة ، تجزأ في وقت لاحق ، ثم بات ينزع الى معاودة الالتئام من جديد[٣] .

ان الغريزتين الاساسيتين تتعارضان او تتراكبان في الوظائف البيولوجية . ففعل الأكل مثلا يستلزم تدمير موضوع ما ، على أن يعقبه تمثل هذا الموضوع . أما الفعل الجنسي فهو عدوان ينزع الى تحقيق أوثق اتحاد . هذا التوافق وهذا التناحر بين الغريزتين الأساسيتين يخلعان على ظاهرات الحياة كل التنوع الذي هو سمة مميزة لها . واذا تجاوزنا مضمار الحياة العضوية وجدنا تناظر غريزتينا الاساسيتين يفضي الى الزوج المتناقض : التجاذب والتنافر ، الذي يهيمن على العالم

---

(١) ايروس : إله الحب عند الإغريق « م » .
(٢) الموضوعي OBJECTAL : نسبة الى الموضوع ، طباق الذات ، والحب الموضوعي هو حب الموضوع ، حب ما ليس هو الذات ، وبمعنى ما ، الحب الغيري . « م » .
(٣) تخيل بعض الشعراء خرافات من هذا القبيل ، لكن لا شيء في تاريخ المادة الحية يؤكد تخيلاتهم .

اللاعضوي[٤] .

ان كل تعديل يطرأ على نسبة انصهار الغريزتين تكون له أظهر النتائج . ففرط العدوانية الجنسية يقلب المحب الى قاتل سادي ، والنقصان الكبير في هذه العدوانية عينها يحيله خجولاً او عنيناً .

ولا مجال لحصر اي من الغريزتين الاساسيتين في منطقة بعينها من مناطق النفسية ، إذ نلتقيهما حتما في كل مكان . وهاكم كيف نتصور الحالة البدئية : فقد كانت كل الطاقة المتاحة للايروس ، التي سنسميها من الآن فصاعداً **بالليبيدو** ، موجودة في الأنا ـ الهذا غير المتمايز بعد ، وكانت تعمل على تحييد النوازع التدميرية الماثلة فيه بدورها (لا نملك بعد مصطلحا مماثلاً لمصطلح « الليبيدو » للاشارة الى طاقة الغرائز التدميرية) . ويغدو سهلاً علينا نسبياً بعد ذلك أن نتتبع المصائر اللاحقة لليبيدو . أما فيما يتصل بغريزة التدمير ، فإن هذا التتبع أشد عسراً .

فما دامت هذه الغريزة تعمل في الداخل بوصفها غريزة موت ، فإنها تظل خرساء ولا تظهر لنا إلا لحظة تتحول الى الخارج بوصفها غريزة تدمير . ويبدو ان هذا التمويه ضروري لحفظ الفرد ، والجهاز العضلي هو الذي يتولى الأمر . ففي زمن تكوّن الأنا الأعلى ، تتثبت تراكمات كبيرة من غريزة العدوان في داخل الأنا وتعمل فيه كعناصر تدمير ذاتي . وذلك هو أحد الاخطار التي تتهدد سلامة النفسية والتي يعرض الانسان نفسه لها حين يسلك طريق الحضارة . وبالفعل ، إن كبح المرء جماح عدوانيته لهو بوجه عام ضار ومسبب للمرض . وكثيراً ما نلاحظ تحول عدوانية مكبوحة الى تدمير ذاتي لدى فرد يقلب عدوانه الى ذاته ، فيشد في سورة الغضب شعره أو يلطم وجهه بقبضتيه . ومن المحقق ان هذا الفرد كان يؤثر أن يعامل بهذه المعاملة شخصاً غيره . ويبقى على كل حال قسم من التدمير الذاتي في داخل الفرد الى ان يقتله

---

(٤) كان الفيلسوف امبيذوكلس الاغريغنتي قد تبنى منذ القديم هذا التصور للقوى الاساسية او الغرائز ، وهو تصور لا يزال العديد من أنصار التحليل يقابلونه بالرفض .

في خاتمة المطاف ، وربما لا يكون ذلك الا بعد أن تُستنفد طاقته الليبيدوية بتمامها أو تتثبت على نحو ضار. وهكذا يباح لنا ان نفترض أن الفرد يموت بسبب منازعاته الداخلية ، بينما لا يسقط النوع ، على العكس ، إلا بعد صراع فاشل ضد العالم الخارجي ، وحين يتغير هذا العالم تغييراً لا تعود تكفي معه التكيفات المكتسبة .

من العسير ان نصف مسلك الليبيدو في الهذا وفي الأنا الأعلى . فكل ما نعرفه يخص الانا حيث تتراكم ، من البداية ، كل الكمية المتاحة من الليبيدو . وعلى هذا الوضع نطلق اسم **النرجسية** الأولية المطلقة . وهو يدوم الى ان يشرع الأنا بتوظيف الليبيدو في تمثلاته الموضوعية ، وبتحويل الليبيدو النرجسي الى **ليبيدو موضوعي** . ويبقى الأنا ، مدى الحياة كلها ، المستودع الكبير الذي منه تنطلق التوظيفات الليبيدوية نحو المواضيع والذي اليه ترتد ايضاً على نحو ما تفعل كتلة وذفية (٥) حين تمد أو تسحب شواها الكاذبة PSEUDOPODES. وانما في ملاء حالات الحب فقط يتحول الشطر الأعظم من الليبيدو الى الموضوع ، ويحل هذا الاخير ، الى حد ما ، محل الأنا . ومن خصائص الليبيدو الهامة الأخرى **حركيته** ، اي اليسر الذي ينتقل به من موضوع الى آخر . ويقال ، على العكس من ذلك ، ان الليبيدو **يتثبت** حين يعلق ، واحياناً طول الحياة ، ببعض المواضيع الخاصة .

مما لا جدال فيه ان لليبيدو مصادر بدنية ، وانه ينتشر في الأنا بدءاً من اعضاء ومواضع مختلفة في الجسم . وهذا ما يتجلى اوضح التجلي في ذلك الشق من الليبيدو الذي يعرف ، بمقتضى هدفه الغريزي ، بالتهيج الجنسي . ويطلق اسم **المناطق الشهوية** ZONES ÉROGÈNES على تلك الأجزاء من الجسم التي منها ينطلق بصورة رئيسية هذا الليبيدو ، غير ان الجسم برمته يشكل ، والحق يقال ، منطقة شهوية . ومما اتاح لنا بوجه الخصوص ان نعرف الايروس ،

---

(٥) الوذفة او البروتو بلازما : المادة الحية الاساسية في الخلايا الحيوانية والنباتية ، وحركتها متمورة تمد او تسحب فيها اقدامها (شواها) الكاذبة . «م»

ومن ثم ممثله : الليبيدو ، دراسة الوظيفة الجنسية التي تتطابق في عرف الجمهور ، بله في نظرياتنا العلمية ايضاً ، مع الايروس ، وقد تأتى لنا أن نتبين الكيفية التي يتطور بها رويداً رويداً النازع الجنسي ، الذي له ذلك الدور البالغ في حياتنا ، بدءاً من دوافع غريزية جزئية عدة تمثل مناطق شهوية خاصة شتى .

الفصل الثالث
تطور الوظيفة الجنسية

تنزع الجنسية البشرية ، في عرف التصور الاكثر شيوعاً بين الناس ، الى تحقيق الاتصال في المقام الأول بين الاعضاء الجنسية لفردين من جنس مختلف . وتعد القبلات والنظر الى جسم الشريك ولمسه تظاهرات ثانوية وأفعالاً تمهيدية . والمفروض بالنازع الجنسي ان يظهر عند البلوغ ، أي في زمن النضج الجنسي ، وأن يكون هدفه التناسل . غير ان بعض الوقائع ، المعروفة جيداً ، لا تدخل في الاطار الضيق لمثل هذا التصور :

١ - فمما يسترعي الانتباه أن بعض الاشخاص لا يشعرون بانجذاب إلا نحو أفراد من نفس جنسهم وإلا نحو الاعضاء التناسلية لهؤلاء الافراد .

٢ - مما يسترعي الانتباه ايضاً ان اللذة التي تساور بعض الافراد لا تصدر ، وان حافظت على طابع جنسي تام ، عن المناطق التناسلية أو لا تستخدمها بصورة عادية . ويسمى هؤلاء الاشخاص بالمنحرفين .

٣ - من الواضح ، اخيراً ، ان بعض الاطفال - الذين يعدون لهذا السبب منحطين - يهتمون في وقت مبكر للغاية بأعضائهم التناسلية التي تظهر عليها علائم تهيج .

لا عجب ان يكون اكتشاف هذه الوقائع الثلاث المغفلة قد أثار ضجة .فالتحليل النفسي، الذي أبرزها وشدد عليها ، عاكس تيار الافكار الرائجة شعبياً ، ومن هنا جوبه بمعارضة عنيفة . وهاكم النتائج الرئيسية لذلك الاكتشاف.

أ ـ ان الحياة الجنسية لا تبدأ في عهد البلوغ ، بل تعلن عن نفسها في زمن مبكر جداً عقب الولادة .

ب ـ من الضروري التمييز بدقة بين مفهوم الجنسي ومفهوم التناسلي . فلفظة الجنسي لها معنى أوسع بكثير ، وهي تطال وجوهاً عدة من النشاط لا ضلع لها بالاعضاء التناسلية .

جـ ـ تتضمن الحياة الجنسية الوظيفة التي تتيح الظفر بلذة من مناطق شتى في الجسم ؛ وهذه الوظيفة يفترض فيها في وقت لاحق ان توضع في خدمة التناسل . غير ان هاتين الوظيفتين لا تتطابقان على الدوام تمام التطابق .

ان الاطروحة الأولى ، التي هي أبعد الاطروحات الثلاث عن التوقع ، هي أيضاً أوْلاها بالاستئثار بأعظم الاهتمام . فلئن انكرت صفة « الجنسية » على بعض وجوه النشاط لدى صغار الاطفال ، فليس ذلك إلا نزولا عند حكم رأي مسبق قديم. فوجوه النشاط هذه ترتبط بظاهرات نفسية لا نعتم ان نلتقيها ، في زمن لاحق ، في حياة الراشدين الحبية كالتثبيت ، مثلا ، على موضوع خاص ، أو الغيرة ، الخ . ونلحظ ايضاً ان ظاهرات الطفولة الأولى هذه تتطور وفق قواعد معينة ، ويطرد تناميها وصولاً الى آخر السنة الخامسة من العمر ، حيث تبلغ ذروتها لتتوقف بعد ذلك لحين من الزمن . وعند تلك المرحلة يقف التقدم ، وتقع جملة من الاشياء في لجة النسيان وتتراجع القهقرى . وبعد هذه المرحلة التي يقال لها مرحلة الكمون ، تعاود الجنسية ظهورها عند البلوغ ، بل يسعنا القول إنها تزهر من جديد . الحقيقة التي تواجهنا اذن هنا هي ان الحياة الجنسية **ثنائية الطور** في توطدها ، وهذه ظاهرة لا تلحظ إلا عند الانسان وحده ، ودورها في صيرورة هذا الاخير كبير ولا شك(١) .

(١) ثمة فرضية تذهب الى ان الانسان تحدر من حيوان ثديي كان نضوجه الجنسي يتم في السنة الخامسة من عمره . ثم طرأ حدث خارجي كبير أخلّ بالتقدم المطرد للنوع وأوقف تطور الجنسية . وقد يكون هذا ايضاً أصل بعض الفروق الاخرى في الحياة الجنسية بين الانسان والحيوانات ، ومنها مثلاً انتفاء التأثير الموسمي على الليبيدو ، واستخدام دور الحيض في العلاقات الجنسية .

وتخضع جميع أحداث هذه المرحلة المبكرة من النشاط الجنسي ، خلا استثناءات نادرة ، **للنساية الطفلية** ، وهذه ظاهرة لا يجوز ان تقابل منا بعدم الاكتراث . وبالفعل ، ان ملاحظة هذه النساية هي التي اتاحت لنا ان نكوِّن فكرة عن أسباب الاعصبة وأن نضع طريقتنا في العلاج التحليلي . وعلاوة على ذلك ، أمدتنا دراسة السيرورات التطورية في طور الطفولة ببراهين تؤيد استنتاجات اخرى .

ان اول عضو يعلن عن نفسه كمنطقة شهوية ويطرح مطالب ليبيدوية على النفسية هو ، منذ الولادة ، الفم . فكل النشاط النفسي يتركز أولاً على إشباع حاجات هذه المنطقة . ولا شك في ان التغذية تشبع ، قبل كل شيء ، حاجة حفظ الذات . لكن لنحاذر الخلط بين الفيزيولوجيا والسيكولوجيا . فالطفل يدلل في وقت مبكر جداً ، بتشبثه بالمص ، على ان فعله هذا يعود عليه بالرضى . وهذا الشعور بالرضى ، وان استمد أصله من التغذية ، يبقى مع ذلك مستقلاً . وما دامت الحاجة الى المص تنزع الى توليد لذة ، فمن الممكن ومن الواجب أن توصف بأنها **جنسية** .

ومنذ هذا الطور الفموي ، ومع ظهور الاسنان الاولى، تبرز بعض الدوافع الغريزية السادية بصورة منعزلة . ويزداد بروزها زيادة كبيرة في الطور الثاني ، الذي نسميه بالطور السادي ـ الشرجي، لأن الشعور بالرضى يتأتى من العدوان ومن الوظيفة الاخراجية . ولئن خولنا أنفسنا الحق في إدراج النوازع العدوانية في الليبيدو ، فذلك لأننا نعتقد ان السادية مزيج من دوافع غريزية ليبيدوية خالصة ومن نوازع تدميرية خالصة ، وهو مزيج يدوم أبد العمر(٢) .

أما الطور الثالث الذي نسميه بالقضيبي فيسبق مباشرة الحالة النهائية للحياة الجنسية ويكون بينه وبينها شبه كبير . ولنلحظ ان

(٢) ينبغي ان نتساءل عما اذا كان إشباع الحوافز الغريـزية التدميرية الخالصة حقيقاً بتوليد لذة ، وعما اذا كان هناك تدمير بدون عناصر ليبيدوية . ولا يبدو ان إشباع الرسابات التي تتبقى في الانا من غريزة الموت يولد لذة ، على الرغم من ان المازوخية تمثل مزيجاً شبيهاً تماماً بالسادية .

الاعضاء التناسلية الذكرية (القضيب) هي وحدها التي تلعب في هذا الطور دوراً . أما الاعضاء التناسلية الانثوية فتبقى ردحاً طويلا من الزمن مجهولة ؛ ذلك ان الطفل ، حينما يسعى الى فهم الظاهرات الجنسية ، يأخذ بنظرية المخرج(٣) الموقرة ، وهي نظرية لها ما يبررها من وجهة النظر التكوينية(٤) .

مع الطور القضيبي وفي اثنائه تدرك الجنسية الطفلية ذروتها وتقترب من طور أفولها . ومن الآن فصاعداً سيختلف مصير كل من الصبي والبنت . فقد بدأ كلاهما بأن وضع نشاطه الذهني في خدمة الاستقصاء الجنسي ، وأخذ كلاهما بفرضية عمومية القضيب . غير أن الطريقين اللذين يسير فيهما الجنسان سيفترقان . فالصبي الصغير يدخل في الطور الاوديبي ويشرع بمعابثة قضيبه ويرفق هذه المعابثة بتخيلات ذات صلة بنشاط جنسي موضوعه الأم . غير ان الصبي الصغير لا يعتم تحت تأثير صدمتين متزامنتين : التهديد بالخصاء وملاحظة فقدان المرأة للقضيب ، ان يتعرض لاعظم رضة في حياته ، وهي الرضة التي تعقبها لاحقا مرحلة الكمون بكل نتائجها . اما الفتاة الصغيرة فبعد محاولات فاشلة لتقليد الصبي تدرك فقدانها للقضيب أو بالاحرى دونية بظرها ، الأمر الذي يكون له آثار دائمة في تكوين طبعها ؛ فهذه الخيبة الأولى في مضمار المنافسة تجعلها تعزف في كثير من الاحيان عن الحياة الجنسية عزوفاً تاماً .

من الخطل أن نحسب أن هذه المراحل الثلاث ذات حدود مرسومة بوضوح ، فقد توازي واحدتها الاخرى أو قد تتداخل معها أو قد

---

(٣) نظرية المخرج CLOAQUE : تصور طفلي يحسب ان الاطفال ، نظير البراز ، يولدون من « الخلف » ، أي من الشرج . ويرتب المذهب التحليلي النفسي على هذا الخلط بين المهبل والشرج نتائج هامة ، ومنها نفي الدور الشهوي للمهبل ، وربط الجنس بالعدوان وبمشاعر الخوف عند الاتصال الجنسي . « م » .

(٤) ذهب بعضهم تكراراً الى أن التهيجات المهبلية يمكن أن تطرأ في وقت مبكر للغاية لكنها لا تعدو في الأرجح في هذه الحال ان تكون تهيجات بظرية ، اي تهيجات في عضو مشابه للقضيب ، وبذلك لا يسقط حقنا في وصف هذا الطور بأنه قضيبي .

تتطابق . وفي الاطوار المبكرة تعمل شتى الدوافع الغريزية الجزئية بصورة مستقلة عن بعضها بعضاً في سبيل كسب مقدار من اللذة . وانما في اثناء الطور القضيبي ترضخ النوازع الاخرى لزعامة الاعضاء التناسلية ويندمج الطلب العام للذة بالوظيفة الجنسية . ولا يكتمل التنظيم إلا مع البلوغ ، وفي طور رابع ، هو الطور التناسلي . وتجري الأمور في هذا الطور على النحو الآتي : ١ء ـ تبقى توظيفات قديمة ، شتى لليبيدو قائمة ؛ ٢ء ـ تندمج توظيفات اخرى في الوظيفة الجنسية لتشكل الافعال الثانوية أو التمهيدية التي ينشأ عن إشباعها ما يسمى باللذة التمهيدية ؛ ٣ء ـ يجري استبعاد نوازع اخرى ، إما بالقمع الشامل (الكبت) ، وإما بتعديل دورها في الأنا ؛ فتشكل بعض سمات طبعية او تخضع لإسماء مصحوب بنقل للهدف .

لا تتم هذه السيرورة على الدوام بلا ضرر ، وضروب الكف التي تعيق مجراها تتظاهر في شكل اضطرابات مختلفة في الحياة الجنسية . عندئذ يبقى الليبيدو مثبّتاً على الحالات المميزة للاطوار المبكرة من النمو ، وتحدث ضروب شتى من الحيدان عن الهدف السوي تسمى **بالانحرافات** . وتقدم لنا الجنسية المثلية السافرة مثالاً على اضطرابات التطور هذه ويبيّن التحليل أن هناك على الدوام رابطاً موضوعياً جنسياً مثلياً ، وكل ما هنالك ان هذه الجنسية المثلية تبقى في اغلب الحالات **كامنة** . والسيرورات التي تؤدي الى قيام حالة سوية لا تتحقق ابداً بتمامها كما لا تنعدم ابداً بتمامها . فليس لها اجمالا سوى طابع **جزئي** ، بحيث يتوقف المآل النهائي على علاقات **كمية** . وواضح للعيان مدى تعقيد هذا الوضع . وهكذا فإن التنظيم التناسلي وان قام ، غير أنه يظل محروماً من جميع اجزاء الليبيدو التي لم يقيض لها التطور والتي لبثت مثبتة على المواضيع والاهداف القبتناسلية . ويتجلى هذا الضعف ، في حالات عدم الاشباع الجنسي أو العقبات الفعلية ، في نزوع الليبيدو الى التراجع نحو التوظيفات القديمة القبتناسلية ، اي الى **النكوص** .

لقد انتهينا ، في اثناء دراستنا الوظائف الجنسية ، الى اقتناع أول

ومسبق، أو بتعبير ادق ، الى اشتباه أول بصدد نقطتين تبدو أهميتهما ، في هذا المضمار كله ، كبيرة . أولاً ، ان الظاهرات السوية او غير السوية التي نلاحظها (وتلك هي الفينومينولوجيا) تقتضي ان توصف من الزاوية الدينامية او الاقتصادية (في الحالة التي نحن بصددها يتعين علينا ان نسعى الى معرفة التوزيع الكمي لليبيدو) . ثانياً ، ان اسباب الاضطرابات التي ندرسها تتكشف في تاريخ تطور الفرد ، أي في طفولته .

الفصل الرابع
الكيفيات النفسية

وصفنا بنية الجهاز النفسي ، والطاقات أو القوى التي تفعل فيه . ورأينا ، من خلال مثال بيّن ، كيف تنتظم هذه الطاقات ، وفي المقام الأول الليبيدو ، في وظيفة فيزيولوجية هدفها حفظ النوع . على ان هذا كله لم يكن له طابع نفسي نوعي ، فيما خلا ، بطبيعة الحال ، الواقعة التالية التي يمكن التحقق منها بالتجربة : وهي ان الجهاز والطاقات المشار اليها هي بمثابة الاساس بالذات للوظائف التي تعرف بالوظائف النفسية وعليه ، فلننظر الآن في ما هو ، في عرف التصور الشائع ، سمة موقوفة على الظاهرة النفسية ، في ما يجعل منها ظاهرة فريدة في نوعها .

ان نقطة الانطلاق لبحثنا تتيحها لنا واقعة منقطعة النظير ، لا سبيل الى تفسيرها او وصفها : هي الشعور . ومع ذلك ، حالما يدور الكلام عن الشعور ، يعرف كل واحد للحال ، وبالخبرة ، ما المقصود به[1] . ويقنع الكثيرون من الناس ، سواء كانوا من العاملين أم غير العاملين في الاوساط العلمية ، بالافتراض ان الشعور هو وحده قوام النفسية كلها ، وان ليس لعلم النفس بالتالي من مهمة في هذه الحال غير أن يميز ، في داخل نطاق الفينومينولوجيا النفسية ، بين الادراكات والاحساسات والسيرورات الذهنية والافعال الإرادية ، ومع ذلك يتفق

(١) يرى اتجاه متطرف ، نظير السلوكية التي رأت النور في اميركا ، أن بوسعه ان ينشىء علم نفس لا يقيم اعتباراً لهذه الواقعة الاساسية !

رأي الجميع على ان السيرورات الشعورية لا تشكل سلسلة متصلة مكتملة ، وهذا ما يوجب التسليم بوجود سيرورات فيزيقية او بدنية مصاحبة للظاهرات النفسية ، وادنى الى الاكتمال من سلاسل هذه الاخيرة ، إذ يشتمل بعضها على سيرورات شعورية موازية بينما لا يشتمل بعضها الآخر على شيء من هذا . يبدو طبيعياً اذن ان نلح في علم النفس على هذه السيرورات البدنية ، وان نرى فيها خاصية ما هو نفسي صرف ، وأن نحاول تقييم السيرورات الشعورية تقييماً مغايراً . بيد ان اغلب الفلاسفة وكثيرين سواهم ، يثورون على هذه الفكرة ويعلنون ان المصادرة على وجود نفسية لاشعورية خُلْف وإحالة .

ومع ذلك ، فهذا بالضبط ما يتعين على التحليل النفسي ان يفعله ، وتلكم هي بالتحديد فرضيته الاساسية الثانية . فهو يؤكد ان السيرورات المصاحبة التي يُزعم أنها من طبيعة بدنية هي بالتحديد قوام النفسية ، ولا يشغل نفسه بادىء الأمر بصفة الشعور . ولا ينفرد التحليل النفسي أصلاً بإبداء هذا الرأي . فقد أفصح مفكرون آخرون .ومنهم مثلاً ت .ليبس LIPPS ،عن وجهة نظر مماثلة في ألفاظ مماثلة ؛ ونظراً الى أن التصور الشائع عن ماهية النفس لا يرضي الفكر ، فقد كان من المحتم ان تفرض فكرة وجود لاشعور نفسها بمزيد من القوة على علم النفس ، لكن على نحو شديد الإبهام والغموض ، مما شلها عن التأثير في العلم[٢] .

---

(٢) في اوراق المؤلف التي نشرت بعد وفاته وجدت صياغة اخرى يعود تاريخها الى تشرين الاول ١٩٣٨ ، ننقل منها المقاطع التالية :

« ... والعجيب أن الجميع ، او الجميع تقريباً ، يتفق رأيهم على أن يجدوا لكل ما هو نفسي طابعاً مشتركاً ، طابعاً يعبر عن ماهيته بالذات . انه الطابع الوحيد ، الذي يند عن الوصف ، والذي لا حاجة به أصلاً الى ان يوصف ، **للشعور** . فكل ما هو شعوري هو نفسي . وبالعكس ، كل ما هو نفسي هو شعوري . وأنى لنا ان نماري في بديهية كهذه ! لكن لنقر مع ذلك بأن هذه النظرة للامور لم توضح ماهية النفسية ، إذ اصطدم البحث العلمي هنا بجدار ، فما اكتشف أي درب يمكن ان يتخطى به هذا الحاجز . ثم ان المماثلة بين النفسي والشعوري تقود القائم بها ـ وهذه نتيجة مؤسفة ـ الى فصل =

= السيرورات النفسية عن مجمل الظاهرات الكلية ، فتتبدى هذه السيرورات وكأنها شيء قائم بنفسه .

«وما كان من الممكن القبول بفكرة كهذه . إذ كيف لنا ، بالفعل ، ان نتجاهل ان الظاهرات النفسية ترتبط الى حد كبير بالظاهرات البدنية ، وأنها ، بالعكس ، تؤثر تأثيراً قوياً فيها ايضاً ؟ والحق ، لئن وجد الفكر الانساني نفسه يوماً في درب مسدود ، فإنما في هذا المضمار تحديداً . وقد اضطر الفلاسفة ، بحثاً عن مخرج ، الى التسليم ولو بوجود سيرورات عضوية موازية للسيرورات النفسية ومرتبطة بها على نحو يعسر تفسيره . وتفسح هذه السيرورات في المجال أمام المبادلات بين « النفس والجسم » وتدرج من جديد الظاهرة النفسية في مجمل الحياة . غير ان هذا التفسير ليس بدوره مقنعاً .

« لقد خرج التحليل النفسي من هذا المأزق بأن انكر بقوة مماثلة النفسي بالشعوري. كلا ، ان الشعور ليس ماهية النفسي ، بل صفة من صفاته فحسب ، وصفة متقلبة ، عائبة اكثر منها حاضرة في الغالبية العظمى من الاحوال . والعنصر النفسي يبقى بحد ذاته ، واياً تكن طبيعته ، لاشعورياً ، شبيهاً في ذلك،في ارجح الظن،بسائر الظاهرات الطبيعية الاخرى التي نعرفها ...

« في رأينا ان مسألة علاقات الشعور بالنفسية قد وجدت حلها الآن : فما الشعور إلا كيفية (خاصية) ، متقلبة اصلاً ، من كيفيات النفسية. لكن يبقى علينا بعد ان نفند اعتراضاً : فعلى الرغم من الوقائع التي تكلمنا عنها يزعم بعضهم أنه لا يجوز العزوف عن فكرة وحدة الهوية بين النفسي والشعوري لأن السيرورات النفسية التي تعرف باللاشعورية لا تعدو ان تكون سيرورات عضوية موازية لسيرورات النفسية ومعترفاً بها منذ القديم . وعلى هذا ، فإن المشكلة التي نريد حلها لا تعدو بدورها ان تكون مسألة باطلة تنصب على التعريف . وجوابنا عن ذلك انه من غير المعقول ومن غير المناسب بالفعل تحطيم وحدانية الحياة النفسية لصالح تعريف ليس إلا ، في الوقت الذي نعاين فيه ان الشعور لا يمدنا إلا بسلاسل من تظاهرات غير كاملة ، مليئة بالثغرات . أفمن قبيل المصادفة وحدها ألا نكون قد توصلنا الى تقديم نظرية شاملة متماسكة عن النفسية إلا بعد ان عدّلنا تعريفها ؟

« لنحاذر على كل حال من الاعتقاد بأن التحليل النفسي هو الذي ابتكر نظرية النفسية هذه . فقد اكد فيلسوف الماني ، هو تيودور ليبس ، جازماً ان اللاشعور سمة مميزة للظاهرة النفسية . وقد كان مفهوم اللاشعور يقرع منذ زمن بعيد ابواب علم النفس ، وكان بينه وبين الفلسفة ، وكذلك بين الأدب ، مغازلة ، ولكن العلم ما كان يعرف كيف يستخدمه . وقد تبنى التحليل النفسي هذه الفكرة ،وحملها على محمل الجد، وافرغ =

والفلسفة مجرد مسألة تنصب على التعريف : « فأي سلسلة من سلاسل الظاهرات ينبغي أن نختصها بالوصف بأنها « نفسية » ؟

والواقع ان هذه المسألة ارتدت اعظم الاهمية . فعلى حين ان علم نفس الشعور ما كان يسعه قط الخروج من نطاق هذه السلاسل المليئة بالثغرات والمرتبطة بكل وضوح بشيء آخر ، فإن المفهوم القائل ان العنصر النفسي هو في ذاته لاشعوري اتاح لعلم النفس ان يصير فرعاً ،مشابهاً لغيره من الفروع،من العلوم الطبيعية . فالظاهرات التي يدرسها علم النفس هي في ذاتها ليست اكثر قابلية للمعرفة من الظاهرات التي تدرسها العلوم الاخرى ، كالكيمياء أو الفيزياء مثلاً ، لكن من الممكن تعيين القوانين التي تحكمها وإخضاع علاقاتها المتبادلة وارتهان بعضها ببعضها الآخر للملاحظة على نطاق واسع وبلا ثغرات . وهذا ما يسمى بالوصول الى « فهم » هذه الفئة من الظاهرات الطبيعية ؛ وهو أمر يقتضي خلق فروض ومفاهيم جديدة ؛ على أنه لا يجوز ان نعد هذه الفروض والمفاهيم المستحدثة ادلة على ما نتخبط فيه من حرج بل ينبغي أن نرى فيها اغناء لمعارفنا . ويخلق بنا ان ننظر اليها من الزاوية عينها التي ننظر منها الى فروض العمل التي تلجأ اليها في العادة علوم طبيعية اخرى ، وأن نعزو اليها القيمة التقريبية نفسها . وانما من التجارب المتراكمة والمنتخبة تنتظر هذه الفروض تعديلاتها ومبرراتها ، كما تتوقع تعييناً اكثر دقة ووضوحاً . فهل لنا ان نعجب ان بقيت المفاهيم الاساسية للعلم الجديد (الدافع الغريزي ، الطاقة العصبية ، الخ) ، بل مبادئه

= عليها مضموناً جديداً . وقد امتدت الابحاث التحليلية النفسية الى بعض سمات للنفسية اللاشعورية ما كان أحد اشتبه بها بعد ، واكتشفت بعض القوانين التي تحكمها . ولا نقصد بذلك ان الكيفية الشعورية قد فقدت قيمتها في نظرنا . فهي تبقى المنارة الوحيدة التي تضيء لنا وتسدد خطانا في دياميس الحياة النفسية . وبالنظر الى الطبيعة الخاصة لمعرفتنا ، فإن قوام مهمتنا العلمية في مضمار علم النفس ان نترجم السيرورات اللاشعورية الى سيرورات شعورية لنردم على هذا النحو ثغرات ادراكنا الشعورية » .

بالذات ، بعيدة لأجل مديد من الزمن عن التعيين ، مثلها في ذلك مثل مفاهيم العلوم الاقدم عهداً (القوة ، الكتلة ، الجاذبية ، الخ) ؟

ان كل علم يستند الى مشاهدات وتجارب ينقلها الينا جهازنا النفسي ، لكن بما ان هذا الجهاز عينه هو موضوع دراستنا ، فان المماثلة تقف عند هذا الحد . فمشاهداتنا نجريها بمساعدة جهاز الادراك عينه ، ونحن نعتمد تحديداً على قطع الاتصال في سلاسل السيرورات النفسية . وبالفعل ، اننا نردم الفجوات باستدلالات معقولة مقبولة ، ونترجمها الى مادة شعورية . وبعملنا هذا نضيف ، ان جاز التعبير ، الى الظاهرات النفسية اللاشعورية سلسلة متممة من الوقائع الشعورية . ويقوم اليقين النسبي لعلمنا عن النفسية على القوة الاقناعية لاستدلالاتنا . ومن يبغ التعمق في هذه المسألة فسيجد أن تقنيتنا تصمد بقوة امام كل نقد .

ينجذب اهتمامنا ، في أثناء عملنا ، نحو بعض التمايزات التي تشكل ما نسميه **بالكيفيات النفسية** . ولا حاجة بنا الى ان نشرح هنا ما نسميه **بالشعور** ، فهو عينه الشعور لدى الفلاسفة ولدى الجمهور العريض[٣] . وكل ما عداه من النفسية ، هو في رأينا ، اللاشعور . ولن نجد مفراً من أن نجري في هذا اللاشعور تمييزاً هاماً . فعدد من السيرورات تغدو ، بالفعل ، شعورية بسهولة ، ثم تكف عن أن تكون شعورية لتعود فتصبح كذلك من جديد بلا عناء . فهي تستطيع ، كما يقال ، ان ترجع الى الذاكرة وأن تستعاد وتُستظهر . ولا يغب عنا أن الحالة الشعورية هي من اكثر الحالات سرعة زوال ، إذ لا يبقى الشعوري شعورياً إلا لهنيهة من الزمن . ولئن لم تؤيد ادراكاتنا هذه الواقعة ، فليس لنا أن نرى في ذلك سوى تناقض ظاهر مرده الى ان التنبيهات يمكن ان تدوم زمناً ما ، بحيث يتأتى لإدراكنا لها ان يتكرر

---

(٣) تجدر الاشارة الى ان الشعور بالالمانية ، كما باللغات اللاتينية ، يعني الوعي CONSCIENCE. وبالمقابل ، فإن الترجمة العربية لهذا المصطلح بالشعور (وكذلك اللاشعور مقابل اللاوعي INCONSCIENT) تقيم فاصلاً اختصاصياً بين اللغة التحليلية النفسية وبين لغة عامة الناس . «م »

طوال هذا الزمن . ويتوضح هذا الوضع متى تفحصنا الادراك الشعوري لسيروراتنا التفكيرية ، فصحيح أن هذه السيرورات قابلة لأن تدوم ، لكنها قابلة ايضاً لأن تتوقف في مثل لمح النظر . وسوف نقول في هذا القسم من اللاشعور ، الذي يبقى لا شعوريا تارة ، ويغدو شعورياً طوراً ، إنه « قابل لأن يصير شعورياً » ، وسوف نحبذ ان نطلق عليه اسم **القبشعور** . وتدل التجربة أنه لا وجود تقريباً لسيرورة نفسية ، مهما تكن معقدة ، لا يمكن لها أحياناً ان تبقى قبشعورية ، وان كانت تسعى في العادة الى الدلوف الى الشعور ، كما نقول .

ثمة سيرورات أو مضامين نفسية اخرى تواجه صعوبة اكبر في الدلوف الى الشعور . ولا مفر من أن تُستنتج وتكتشف ويُعثر لها على ترجمتها الشعورية . ولها تحديداً نحتفظ باسم اللاشعور بحصر المعنى . اننا نعزو اذن الى السيرورات النفسية كيفيات ثلاثاً : فهي إما شعورية واما قبشعورية وإما لاشعـورية . والتمييز الذي يمكن أن يقام بين هذه الفئات الثلاث من المضامين التي اليها تنتمي هذه الكيفيات ليس مطلقاً ولا دائماً . فالقبشعوري ، كما رأينا ، يمكن ان يصير شعورياً ، بلا تدخل من قبلنا . واللاشعوري يمكن ان يصبح ، بفضل جهودنا ، شعورياً ، وكثيراً ما يتراءى لنا في هذه الحال أنه يتعين علينا ، للوصول الى ذلك ، التغلب على مقاومات بالغة الشدة . وعندما نقوم بهذه المحاولة على شخص آخر ، يخلق بنا أن نتذكر أنه لا يكفينا ان نردم فجوات إدراكاته ، واننا إذ نتيح له ان يعيد بناء الاحداث لا نكون أفلحنا بالضرورة في تحويل المواد اللاشعورية المعنية عنده الى مواد شعورية . والحق أن هذا المضمون يكون مزدوج التثبيت في نفسيته ، اولا في اعادة البناء الشعوري الذي أتحناه له، وثانياً في الشكل البدائي اللاشعوري . وبمواصلتنا مجهودنا نتوصل في العادة إلى تحويل المضمون اللاشعوري الى مضمون شعوري ، فيتطابق عندئذ التثبيتان . وتتيح لنا شدة جهودنا أن نقيس المقاومة التي تعترض سبيل التحول الى الشعور والتي تتفاوت من حالة الى اخرى . كذلك فإن النتيجة التي نظفر بها بعد لأي في اثناء العلاج التحليلي يمكن أن

تحدث بصورة تلقائية أيضاً ، وذلك عندما ينقلب احياناً مضمون لاشعوري في العادةالى مضمون قبشعوري ثم يصبح شعورياً،وهذا ما يحدث في الحالات الذهانية على نطاق واسع . ومن ذلك نستنتج ان بقاء بعض المقاومات الداخلية هو واحد من شروط الحالة السوية . وفي اثناء النوم بصفة عامة ترتفع المقاومات ويندفع بنتيجة ارتفاعها المضمون اللاشعوري ، فتتاح بالتالي للأحلام امكانية التكون . وعلى العكس من ذلك ، قد يحدث ان يبقى المضمون القبشعوري بعيد المنال لأمد من الزمن ، اذ تعترض بعض المقاومات سبيل تحوله الى الشعور ، كما في حالة النسيان العابر (الهفوات) . وكذلك قد ترتد الفكرة القبشعورية بصورة مؤقتة الى الحالة اللاشعورية ، وذلك هو شرط النكتة فيما يبدو . وسوف نرى ان هذا الضرب من ارتداد المضامين (او السيرورات) الى الحالة اللاشعورية يلعب دورا هاماً في نشوء الامراض العصابية .

ان نظرية الكيفيات الثلاث للنفسية تبدو ، في هذا الشكل العام والمبسط الذي قدمناها به ، وكأنها عامل تشويش للاشياء لا عامل توضيح . بيد أنه يخلق بنا ألا ننسى انها ليست نظرية بحصر المعنى ، بل هي مجرد تقرير اولي عن وقائع مشاهدة ، يسعى لا الى تفسير هذه الوقائع ، بل إلى الاحاطة بها عن أقرب قرب ممكن . ومن شأن التعقيدات التي تتكشف لنا على هذا النحو ان تظهر للعيان كثرة العقبات التي تتعثر بها أبحاثنا . على أن كل شيء يحملنا على الاعتقاد أن معرفة العلاقات التي تقوم بين كيفيات النفسية وبين اقاليم الجهاز النفسي أو هيئاته التي نصادر على وجودها ستتيح لنا فهماً افضل للاشياء ، وان تكن هذه العلاقات بعيدة بدورها عن البساطة .

ان فعل الشعور يتعلق قبل كل شيء بالادراكات التي تتلقاها اعضاء حواسنا من الخارج . هذه الظاهرة تحدث اذن ، من وجهة النظر الطوبوغرافية ، في الطبقة اللحائية الاكثر خارجية من الأنا . ونحن لا ننكر ان بعض المعلومات الشعورية تأتينا ايضاً من داخل جسمنا ، وتتمثل بالمشاعر التي لها على حياتنا النفسية تأثير اعظم وقعاً

بعد من الادراكات الخارجية . واخيراً تصدر عن اعضاء الحواس ، في ظروف شتى ، علاوة على إدراكاتها الخاصة بها ، مشاعر واحاسيس مؤلمة . وهذه الانطباعات ، كما نسميها تمييزاً لها عن الادراكات الشعورية ، تنبعث ايضاً من أعضائنا الطرفية . والحال اننا نعتبر هذه الاعضاء استطالات لتشعبات الطبقة اللحائية ، الأمر الذي يتيح لنا ان نتمسك بوجهة النظر التي تقدم بيانها . وحسبنا ان نقول ان الجسم عينه ينوب مناب العالم الخارجي بالنسبة الى الاعضاء الطرفية ، المستقبلة للاحاسيس والمشاعر .

لكم كان الأمر سيبدو بسيطاً لو امكن لنا ان نعين موقع السيرورات الشعورية في محيط الأنا ، وموقع كل الباقي اللاشعوري في الأنا ! وربما كان هذا واقع الحال لدى الحيوانات؛ غير ان الامور اكثر تعقيداً لدى الانسان بالنظر الى وجود عمليات باطنة في الأنا قابلة ايضاً لأن تغدو شعورية . واللغة هي التي تتيح امكانية اقامة ارتباط وثيق بين مضامين الأنا والبقايا الذاكرية من الادراكات البصرية وعلى الاخص السمعية . ومن هنا يكون المحيط الادراكي للطبقة اللحائية قابلاً للتنبيه ، من الداخل ، على نطاق اوسع بكثير . ومن الممكن أيضاً لبعض السيرورات الباطنة ، نظير تيارات التمثلات والسيرورات التفكيرية ، ان تغدو شعورية . ولذلك يقوم جهاز خاص يوكل اليه التمييز بين الاحتمالين . وهو الذي يتولج بما نسميه **امتحان الواقعية** . وبذلك تبطل معادلة الادراك ـ الواقع (العالم الخارجي) . كما أن الاخطاء ، التي تحدث من الآن فصاعداً بيسر وسهولة ، والتي لا يكاد يخلو منها في العادة حلم ، تسمى **بالهلوسات** .

ان كيفية داخل الأنا ، الذي يحتوي في المقام الأول ، على السيرورات التفكيرية ، هي القبشعور . والقبشعور سمة مميزة للأنا وموقوفة عليه حصراً . على أنه لا يصح الافتراض بأن الارتباط بالآثار الذاكرية للكلام هو شرط الحالة القبشعورية ، فهذه الحالة مستقلة بالاحرى عن شرط كهذا ، على الرغم من أن انشراط سيرورة ما بالكلام يتيح لنا أن نستنتج على وجه اليقين ان هذه السيرورة من

طبيعة قبشعورية . ان الحالة القبشعورية ، المتسمة من جانب اول بالقدرة على بلوغ الشعور ، ومن الجانب الثاني بارتباطها بالآثار الكلامية ، لهي حالة خاصة لا تستنفد هاتان الصفتان طبيعتها . وبرهاننا على ذلك ان اجزاء كبيرة من الأنا ، وعلى الاخص من الانا الأعلى ، الذي لا يمكن ان ننكر عليه طابعه القبشعوري ، تبقى بالاجمال لا شعورية ، بالمعنى الوصفي للكلمة . واننا لنجهل العلة التي تعيّن ان يكون الأمر كذلك ، ولسوف نحاول فيما بعد ان نتصدى لمعضلة الطبيعة الحقيقية للقبشعور .

اما اللاشعور فهو الكيفية الوحيدة السائدة داخل الهذا . وتجمع بين الهذا واللاشعور روابط وثيقة مماثلة لتلك التي تربط بين الانا والقبشعور ، بل ان الرابط هنا اكثر حصرية . ولو القينا نظرة استرجاعية على تاريخ فرد من الافراد وعلى تاريخ جهازه النفسي ، لتأتى لنا ان نجري في الهذا تمييزاً هاماً.ففي الأصل كان الهذا هو كل شيء . وقد تطور الانا بدءاً من الهذا تحت التأثير المتصل للعالم الخارجي . وفي اثناء هذا التطور الوئيد انتقلت بعض مضامين الهذا الى الحالة القبشعورية ، فاندمجت على هذا النحو بالأنا . بينما بقيت مضامين اخرى بلا تغيير في الهذا ، فشكلت نواته التي يعسر النفاذ اليها . غير أن الانا الفتي والضعيف نبذ الى اللاشعور ، في خلال هذا التطور ، بعض المضامين التي سبق له ان دمجها ، وسلك المسلك عينه حيال انطباعات جديدة عدة كان في مقدوره استقبالها ، بحيث ما تسنى لهذه الانطباعات المنبوذة ان تخلف اثراً إلا في الهذا . وانما على هذا القسم من الهذا نطلق ، بالنظر الى أصله ، اسم **المكبوت** ، ولا يتأتى لنا على الدوام أن نميز تمييزاً دقيقاً واضحاً بين هذين الضربين في مضمون الهذا ، وليس هذا بأمر ذي بال اصلاً ، حسبنا ان نقول ان الهذا يتضمن مضامين فطرية ووقائع مكتسبة في مجرى تطور الأنا .

نحن نسلم اذن بانقسام طوبوغرافي للجهاز النفسي الى أنا والى هذا ، وهو انقسام يناظر كيفيتي القبشعور واللاشعور . ونحن نعتقد ايضاً ان هاتين الكيفيتين هما مجرد مؤشر الى الفارق وليستا جوهره .

فما الطبيعة الحقيقية اذن للحالة التي تتجلى في الهذا بكيفيتها اللاشعورية ، وفي الانا بكيفيتها القبشعورية ، وما قوام هذا الاختلاف ؟

اننا نقر بأننا لا ندري من الأمر شيئاً ، وليس ثمة سوى بصيص باهت يضيء الظلمات الدامسة لمعرفتنا . فهنا على وجه التحديد نقترب من اللغز الحقيقي للظاهرات النفسية الذي لم يجد حله بعد.فجرياً على معطيات علوم طبيعية اخرى ، نسلم بأن كمية معينة من الطاقة تفعل فعلها في الحياة النفسية ، ولكن لا تتوفر لنا اية قرائن قمينة بأن تسمح لنا بمقارنة هذه الطاقة بغيرها . ويبدو أن الطاقة العصبية أو النفسية توجد في شكلين: واحدهما سهل الحركة ، وثانيهما ، على العكس ، مقيد . واننا لنتكلم عن توظيفات INVESTISSEMENTS وعن توظيفات فائضة SURINVESTISSEMENTS للمضامين النفسية ، بل نذهب الى حد الافتراض بأن كل « توظيف فائض » يعين ضرباً من تركيب لسيرورات شتى ، تتحول اثناءه الطاقة الحرة الى طاقة مقيدة . وعند هذا الحد تتوقف معرفتنا ، لكننا نعتقد جازمين ان الفارق بين الحالة اللاشعورية والحالة القبشعورية يرجع ، بدوره ، الى علاقات دينامية مماثلة ، وهذا قمين بأن يفسر لماذا يمكن لاحدى الحالتين أن تتحول ، تلقائياً أو بجهودنا ، الى الاخرى .

لقد توصل العلم التحليلي، رغم كل هذه الشكوك ، الى تقرير حقيقة واقعة جديدة . فقد أبان ان السيرورات التي تدور في اللاشعور او الهذا تخضع لقوانين مغايرة للقوانين التي تخضع لها السيرورات التي تدور في الانا القبشعوري . ونحن نطلق على مجمل هذه القوانين اسم **السيرورة الأولية** ، بالتعارض مع **السيرورة الثانوية** التي تحكم ظاهرات القبشعور أو الأنا . وعلى هذا ، تكون دراسة الكيفيات النفسية قد اثبتت في النهاية أنها ليست عقيمة كل العقم .

الفصل الخامس

حول تأويل الحلم

ان دراسة تجرى على الحالات السوية ، التي تكون فيها حدود الأنا مؤمَّنة ضد الهذا بواسطة مقاومات (توظيفات مضادة) وتبقى ثابتة بلا تغيير ولا يمكن فيها تمييز الأنا الأعلى من الأنا لأن الاثنين يعملان بانسجام تام ، اقول ان دراسة كهذه لن تجدينا كبير نفع . ولا يمكن أن تتيح لنا التقدم سوى حالات الصراع والتمرد التي تنشأ حين تسنح لمضمون الهذا اللاشعوري فرصة للتغلغل في الأنا وصولاً الى الشعور ، وحين يسعى الأنا بالمقابل الى اتقاء هذا التسلل . وانما في مثل هذه الحالات فقط يتأتى لنا ان نقوم بمشاهدات تؤكد او تصحح نظرتنا الى الشريكين . والحال ان هذه الامكانية يتيحها لنا النوم الليلي ، إذ أن النشاط النفسي الذي يتبدى في النوم في صورة أحلام هو أفضل موضوع لدراستنا . وناهيك عن ذلك ، فإننا حين ندرس الحلم نتحاشى المأخذ الذي غالباً ما يؤخذ علينا من اننا ندرس الحياة النفسية السوية بناء على المعطيات التي تمدنا بها الحالات المرضية . وبالفعل ، ان الحلم ، مهما اختلفت منتجاته عن منتجات حالة اليقظة ، ظاهرة شائعة في الحياة الذهنية ، لأسوياء الناس . وكل واحد يعرف ان الحلم يمكن أن يكون مشوشاً، لامفهوماً ، بله لامعقولاً ، وأن مضامينه تناقض احياناً كل معرفتنا بالواقع ، واننا نتصرف فيه تصرف المرضى العقليين ، بحكم من اننا نعزو ، ونحن نحلم ، واقعاً موضوعياً الى مضامين الحلم .

اننا نتوصل الى فهم (تأويل) الحلم متى ما سلمنا بأن الذكريات

التي يخلفها لنا بعد يقظتنا لا تكشف عن مضمونه الحقيقي ، بل هي مجرد واجهة تختفي وراءها الحقيقة . هكذا نميز في الحلم بين **مضمون ظاهر وأفكار كامنة** . والسيرورة التي بفضلها تتحول هذه الأفكار الى مضمون ظاهر تسمى **عمل الحلم** . وتقدم لنا دراسة هذا العمل مثالاً ممتازاً على الكيفية التي تفرض بها مادة الهذا اللاشعورية ، الأصلية والمكبوتة ، نفسها على الأنا ، فتغدو قبشعورية ، تم تتعرض ، بسبب مقاومة الأنا ، للتحويرات التي نسميها **تحريفات الحلم** . وما من سمة للحلم لا يمكن تفسيرها على هذا النحو .

يجدر بنا بادىء الأمر ان نلحظ ان تكوين الحلم يتم بطريقتين مختلفتين . فإما أن يجد انفعال غريزي (رغبة لاشعـورية) ، مقموع في العادة ، قوة كافية في اثناء النوم ليفرض نفسه على الأنا ، وإما ان يتعرض نازع ، مستبعد من حالة اليقظة ، أو سلسلة من الأفكار القبشعورية بكل ما تستتبعه من منازعات ، لبعض التعضيد في اثناء النوم بفعل عنصر لاشعـوري . وعلى هذا ، فإن بعض الاحلام يصدر عن الهذا ، وبعضها الآخر عن الأنا . وأوالية تكوينها تتماثل في الحالتين ، مثلما يتماثل شرطها الدينامي اللازم . والأنا ، إذ يعلق مؤقتاً وظائفه وإذ يتيح لحالة سابقة ان تعود ، يدل على أنه يستمد أصله حقاً من الهذا . وهذا كله يحدث بصورة مطردة من حيث ان الأنا يقطع روابطه بالعالم الخارجي ويسحب توظيفاته من أعضاء حواسه . نحن في حل اذن من القول ان ثمة غريزة تدفع بالكائن الى الرجوع الى الحياة داخل الرحم تتخلق عند الولادة ، هي غريزة النوم . وما النوم ، بالفعل ، إلا عود الى رحم الأم . وبما ان الأنا اليقظان هو الذي يتحكم بالطاقة الحركية ، فإن هذه الوظيفة تُشل في اثناء النوم ، وبذلك تنتفي الحاجة الى شطر لا يستهان به من ضروب الكف المفروضة على الهذا اللاشعوري . وعندئذ يتيح سحب هذه التوظيفات المضادة أو إنقاصها للهذا قسطاً من الحرية لا ضرر فيه من الآن فصاعداً . والأدلة على الدور الذي يضطلع به الهذا اللاشعوري في تكوين الحلم عديدة ومقنعة . (أ) فذاكرة الحالم تتسع في الحلم لقدر

من الاشياء اكبر بكثير مما في حالة اليقظة . فالحلم يستعبد بعض ذكريات الحالم المنسية التي لا تكون في متناوله في حالة اليقظة . (ب) يستخدم الحلم على نطاق لامحـدود اللغة الرمزية التي تبقى دلالتها . في غالب الاحيان ، مجهولة من النائـم . غير ان تجربتنا تتيح لنا أن نهتدي الى معناها . وارجح الظن أن أصل هذه اللغة الرمزية يعود الى اطوار سابقة من تطور اللغة . (جـ) غالباً ما تستعيد الذاكرة في الحلم انطباعات من طفولة النائم الأولى ، وبوسعنا ان نجزم ـ بلا خوف الغلط ـ ان هذه الانطباعات ما كانت منسية فحسب ، بل كانت أيضاً قد أمست لاشعـورية بفعل الكبت . ولهذا لا يسعنا ، حين نحاول ان نعيد بناء طفولة الحالم ، على نحو ما نفعل في اثناء العلاج التحليلي النفسي ، أن نستغني في اغلب الاحيان عن الحلم . (د) يبتعث الحلم ، علاوة على ذلك ، مواد ليس مصدرها لا طفولة الحالم ولا حياته الراشدة . ومن ثم ، لا مناص لنا من أن نعتبر هذه المواد جزءاً من الميراث **الأثري** ـ محصلة خبرة الاسلاف ـ الذي آل الى الطفل مع الولادة ، حتى قبل أن يبدأ بالحياة . واننا لنكتشف ، في أقدم أساطير البشرية ، وكذلك في بعض العادات التي كتب لها البقاء ، عناصر مناظرة لهذه المادة السلالية . هكذا يقدم لنا الحلم مصدراً لمعلومات ثمينة عن ما قبل التاريخ البشري .

غير ان ما يسبغ على الحلم قيمة لا تقدر هو ان المادة اللاشعورية ، إذ تتغلغل في الأنا ، تجلب معها إليه طرائق عملها ، اي أن الأفكار القبشعورية التي تعبر عن هذه المادة تعامل ، في اثناء صياغة الحلم ، كما لو كانت عناصر لاشعـورية من الهذا . أما في الطريقة الأخرى لتكوين الحلم ، فإن الأفكار القبشعورية ، بعد ان يعضدها انفعال غريزي لاشعـوري ، ترتد الى الحالة اللاشعورية . وعن هذا الطريق فقط نكتشف ما القوانين التي تحكم السيرورات اللاشعورية وما وجه الاختلاف بينها وبين القواعد المعروفة للتفكير اليقظ . القوام الاساسي لعمل الحلم اذن هو المعالجة اللاشعورية لأفكار قبشعورية . ولنقبس تشبيها من التاريخ : فالفاتحون الذين يغزون بلداً

من البلدان يضربون صفحاً عن القوانين السارية المفعول فيه ويتصرفون وفق شريعتهم الخاصة . على انه من المحقق ان عمل الحلم يتمخض عن تسوية . فتنظيم الأنا لا يُشل بتمامه . بل يظهر أثره واضحاً في التحريف الذي يطرأ على المضمون اللاشعوري ؛ وفي المحاولات -الفاشلة في كثير من الاحيان- التي تبذل لإعطاء هذا المضمون شكلا يمكن للأنا ان يقبل به (**الصياغة الثانوية**) وان تابعنا تشبيهنا قلنا : إن لفي ذلك تعبيراً عن مقاومة المغلوب المستمرة .

ان القوانين التي تحكم مجرى السيرورات في اللاشعور ، والتي سلطنا عليها بعض الاضواء ، جديرة بالاعتبار وكافية لتفسير الشطر الاعظم مما يبدو غريباً في الاحلام . وأول ما يسترعي الانتباه ميل الى التكثيف ، أي الى تشكيل وحدات جديدة من خلال الربط بين عناصر كان من المحتم في حالة اليقظة ان تبقى منفصلة . وترتيباً عليه ، يحدث غالباً أن يمثل عنصر واحد من الحلم الظاهر عدة افكار كامنة من هذا الحلم ، كما لو أنه يلمح اليها جميعها في آن معاً ، ويكون الحلم الظاهر شديد الاقتضاب قياساً الى المعطيات الوفيرة التي تكوَّن منها . وثمة خاصية اخرى لعمل الحلم ، ذات صلة ولو واهية بسابقتها ، هي سهولة **نقل** الشدات النفسية (التوظيفات) من عنصر الى آخر. هكذا يتبدى لنا في احيان كثيرة عنصر بعينه من عناصر الحلم الظاهر مرتدياً ، بحكم وضوحه ، أهمية كبيرة ، بينما هو في الواقع ثانوي الاهمية في افكار الحلم ، ولا يندر ، على العكس من ذلك ، ان يشار الى بعض العناصر الاساسية في افكار الحلم إشارة عابرة في الحلم الظاهر . ثم ان أوهى الصلات بين العنصرين تكون كافية بالإجمال لتمكين عمل الحلم من احلال احدهما محل الآخر في كل سلسلة العمليات . ويسير علينا ان ندرك كم تعسِّر أواليتا التكثيف والنقل هاتان تأويل الحلم وكشف العلاقات بين الحلم الظاهر والأفكار الحلمية الكامنة . ومن وجود هذين الميلين إلى التكثيف والى النقل تستنتج نظريتنا أن الطاقة في قلب الهذا اللاشعوري طليقة في حركتها ، وان

الهذا يحرص في المقام الأول على تفريغ نفسه من كميات المثيرات[١] . وتتيح لنا هاتان الخاصيتان ان نحدد سمات السيرورة الأولية التي عزوناها الى الهذا .

لقد كشفت لنا دراسة عمل الحلم عن خواص كثيرة اخرى ، هامة بقدر ما هي ملفتة للنظر ، للسيرورات التي تجري في اللاشعور ، لكن لا يسعنا هنا ان نذكر عنها الا نبذة . فقواعد التفكير المنطقي لا دور لها تؤديه في داخل اللاشعور ، وبوسعنا ان نطلق على هذا الاخير اسم مملكة اللامنطق . فنحن نجد فيه جنباً الى جنب نوازع ذات أهداف متعاكسة من دون ان تقوم ادنى حاجة الى التوفيق بينها . ولا يقوم بينها احياناً أي غير متبادل ، أو ان وجد هذا التأثير فقد لا يستتبعه أي قرار ، بل تقوم تسوية بعيدة عن المعقول لتضمُّنها عناصر متنافية . كذلك فإن بعض الاضداد لا تبقى البتة في حالة انفصال ، بل تعالج كما لو كانت متماثلة ، بحيث يمكن لكل عنصر في الحلم الظاهر ان يمثل ايضاً نقيضه . وقد تبين بعض علماء اللغة ان هذا يصدق ايضاً على اللغات الاقدم عهداً ، وأن أزواج الاضداد ، نظير قوي ـ ضعيف ، منير ـ معتم ، مرتفع ـ منخفض ، كان يعبر عنها في الأصل بجذر واحد ، الى أن جرى الفصل بين المعنيين بتحويرين مختلفين طرآ على اللفظة البدائية . وحتى في لغة متطورة مثل اللاتينية تطالعنا بقايا من هذه الألفاظ المزدوجة المعنى الأصلي ، نظير ALTUS («مرتفع » و « عميق ») و SACER (« مقدس » و « مستهجن ») مثلاً .

ازاء تعقيد العلاقات بين الحلم الظاهر والمضمون الكامن المستتر خلفه والتباسها ، نرانا منقادين الى ان نتساءل : ما الطريقة القمينة بأن تتيح لنا استخلاص واحدهما من الآخر ، وهل ينبغي ان يكون كل اعتمادنا في ذلك على تخمين موفق قد تعززه ترجمة الرموز التي تظهر في الحلم الظاهر ؟ لنقل ان هذا التأويل ممكن في غالبية الحالات ، على ان تدعمه التداعيات التي يضيفها الحالم نفسه الى عناصر المضمون

---

(١) يذكرنا هذا الوضع بوضع ضابط الصف المكره على الامتثال بلا تذمر لأمر رئيسه ، والذي لا يلبث ان يسقط غضبه على ظهر جندي بريء من الانفار .

الظاهر . وكل طريقة اخرى عسفية ولا تثمر اية نتيجة موثوقة . فتداعيات الحالم تمكّننا من الوصول الى الحلقات الوسيطة التي تحتل مكانها في السلسلة ، فيتأتى لنا عندئذ ان نسد فجوات هذه السلسلة وان نعيد بناء مضمون الحلم ، ثم أن نقوم بتأويل هذا الاخير . فهل من عجب اذا لم يوصلنا عمل التأويل هذا الذي يسلك عكس اتجاه عمل الحلم ، الى يقين تام شامل في كل مرة ؟

يبقى علينا بعد ان نفسر الظاهرة من وجهة النظر الدينامية . فما السبب الذي يحمل الأنا النائم على أن يجشم نفسه عناء صياغة الحلم ؟ لحسن الحظ ان هذه المعضلة لا تنطوي على صعوبة . فنتيجة لتدخل اللاشعور ، يتطلب كل حلم في دور التكوين من الأنا اما إشباعاً لدافع غريزي ان كان ينبعث من الهذا ، وإما حلًا لصراع أو ازالة لشك او تحقيقاً لقصد ان كان ينبعث من رسابة من النشاط القبشعوري في حالة اليقظة . على ان الأنا النائم، المدفوع بالرغبة في الحفاظ على النوم ، ينزع الى نفي الإرباك الذي يحدثه فيه هذا المطلب . وهو يفلح في ذلك عن طريق خضوع ظاهري ، عن طريق **تحقيق للرغبة** ، لا ضرر منه في الشروط المعينة ، ويكون من شأنه إلغاء المطلب المذكور . ان المهمة الاساسية لعمل الحلم أن يستبدل المطلب بتحقيق للرغبة. ولعله من المفيد أن نوضح ذلك بثلاثة أمثلة بسيطة : حلم جوع ، وحلم راحة ، وحلم حاجة جنسية . لنفرض ان حاجة الى الطعام تستبد بالنائم ، فإذا به يحلم ، وهو لا يزال يغط في النوم ، بوجبة شهية . وبديهي أنه كان له الاختيار بين أن يستيقظ ليأكل وبين أن يواصل النوم ، غير أنه أخذ بالحد الثاني من الخيار وأشبع جوعه حلمياً ، لحين من الزمن على الاقل ، على أنه إن ألح عليه الجوع فلن يكون أمامه مناص من ان يستيقظ . والمثال الثاني : مفروض بالنائم أن يتوجه ، في ساعة معينة ، الى العيادة ، لكنه يواصل النوم ، ويحلم أنه وصل الى العيادة ، ولكن بصفته مريضاً . والحال ان المرضى لا حاجة بهم الى مغادرة السرير . والمثال الأخير : تساور النائم رغبة في امتلاك موضوع جنسي محظور : زوجة أحد اصدقائه .

فيحلم باتصال جنسي لا مع هذه المرأة ، بل مع امرأة اخرى تحمل الاسم نفسه ولكنها لا تعني له شيئاً . وقد يحدث ايضاً ، بدافع من تمرده الداخلي ، ان يبقى اسم خليلته في الحلم غفلاً .

بديهي أن الحالات ليست كلها بهذه البساطة . ففي الاحلام التي تنبعث من البقايا النهارية التي لم تتم تصفيتها والتي لم يطرأ عليها اثناء النوم سوى تعضيد مصدره اللاشعور ، يعسر منتهى العسر ان نكتشف القوة الغريزية اللاشعورية وأن نزيح النقاب عن تحقيق رغبة ، ولكننا في حل مع ذلك من الافتراض بأن هذا التحقيق قائم في هذه الحالة ايضاً . ويتذرع كثيرون بالعدد الكبير من الاحلام ذات المضمون المؤلم ، والتي قد تستدعي يقظة موسومة بالقلق والحصر ، فضلاً عن الاحلام الكثيرة التواتر والمتجردة من كل صبغة وجدانية او عاطفية ، ليطعنوا في صحة اطروحتنا القائلة ان الحلم تحقيق لرغبة.بيد ان الاعتراض بأحلام الحصر لا يصمد امام التحليل . إذ لا يجوز لنا ان ننسى ان الحلم هو على الدوام نتيجة صراع وضرب من تسوية . فما قد يكون عامل ارضاء للهذا اللاشعوري يمكن ان يغدو ، للسبب عينه ، عامل حصر بالنسبة الى الأنا .

وتبعاً لنمط عمل الحلم ، يفرض اللاشعور نفسه تارة ، ويقاوم الأنا بمنتهى القوة طوراً . واحلام الحصر هـي بالاجمال الاحلام التي ما أصاب مضمونها سوى تحريف طفيف . فحين يتجاوز اللاشعور الحد في إلحاحه ، فلا يعود الأنا النائم قادراً على دفعه عنه بالوسائل المتاحة له ، يعزف هذا الأنا عن الرغبة في النوم ويعود الى حالة اليقظة ، وتبيح لنا مشاهداتنا ان نؤكد ان كل حلم هو بمثابة **محاولة** لوقاية النوم مما يرنقه ، وذلك عن طريق تحقيق رغبة . الحلم اذن حارس النوم . وهذه المحاولة ، التي تكلل بقدر او بآخر من النجاح ، قد تخفق ايضاً احياناً ، وعندئذ يستيقظ النائم ، كما لو ان الحلم نفسه هو الذي قطـع نومه . وهذه لها سيرورة تشبه من بعض الوجوه صنيع الحارس الليلي الشجاع ، المولج بحماية نوم سكان بلدته الصغيرة ، عنـدما يجد نفسه احياناً مكرهاً على إطلاق النذير وايقاظ اهل البلدة النيام .

ختاماً ، سنشير هنا الى السبب الذي حدا بنا الى اطالة الوقوف عند مشكلة تأويل الاحلام . فالتجربة تدل ان الاواليات اللاشعورية التي تزيح الستار عنها دراسة عمل الحلم ، والتي فسرت لنا تكوين الحلم ، تساعدنا ايضاً في فهم التكوين الغامض للاعراض ، هذه الاعراض التي تستأثر بكل اهتمامنا في الأعصبة NÉVROSES والأذهنة PSYCHOSES . وليس لتطابق كهذا إلا ان يبعث فينا آمالاً عراضاً .

القسم الثاني
المهمة العملية

الفصل السادس
حول تقنية
التحليل النفسي

الحلم اذن ذهان ، بكل ما يصاحبه من تخليطات وتشكيلات هذائية ، وبكل ما يترتب على هذه الاخيرة من أخطاء حواسية . على أنه ، في الحق ، ذهان قصير الأمد ، لا ضرر منه ، بله مفيد نافع ، مقبول من قبل النائم الذي يستطيع ، متى شاء ، ان يضع حداً نهائياً له . ولكنه ، كذهان ، يعلمنا أن التغير الذي يطرأ على الحياة النفسية يظل ، مهما بلغ عمقه ، قابلاً لأن يزول وأن يخلي مكانه لاشتغال الوظيفة السوية . فهل يسعنا ، والحالة هذه، ان نأمل، من غير إفراط في الجرأة ، في أن نمارس تأثيراً على امراضنا النفسية التلقائية والمخيفة وأن نشفيها ؟ إن بعض الوقائع تبيح لنا افتراض ذلك .

اننا نصادر على ان الأنا يرى لزاماً عليه ان يلبي مطالب الواقع ومطالب الهذا والأنا الاعلى في آن معاً ، مع صونه في الوقت نفسه تنظيمه الخاص وتوكيده استقلاله الذاتي . وان وهناً نسبياً او مطلقاً يطرأ على الأنا هو وحده الذي يمكن أن يمنعه من القيام بمهامه ، فيكون بالتالي شرط الحالات المرضية . واغلب الظن أن الأنا مضطر الى ان يخوض غمار أضرى صراع كيما يحتوي مطالب الهذا الغريزية . وهو ينفق بالفعل في هذا الصراع مقادير كبيرة من الطاقة في صورة توظيفات مضادة. غير ان مطالب الانا الاعلى قد تغدو هي الاخرى قوية ، عاتية ، فتشل الأنا عن مهامه الاخرى ، واننا لنشتبه في ان الهذا والانا الاعلى يوحدان جهودهما ، في هذه الصراعات الاقتصادية ، ضد الأنا المرهق الذي يجاهد للتشبث بالواقع للحفاظ على حالته السوية . وعندما تغدو الهيئتان الاخريان على

درجة بالغة من القوة ، فقد تفلحان في تفكيك تنظيم الأنا وتغييره ، بحيث تضطرب علاقاته بالواقع ، أو تنقطع . وقد تسنى لنا ان نلاحظ ، في اثناء دراستنا ، أنه حين ينفصل الانا عن واقع العالم الخارجي ، ينزلق ، تحت سلطان العالم الداخلي ، الى الذهان .

بناء على هذه الرؤية للامور نضع خطتنا في العلاج . فالأنا موهن بنزاع داخلي ، وحقيق بنا أن نمد له يد العون . والأمر هنا كما في بعض الحروب الاهلية حيث يكون القول الفصل لحليف من الخارج . فعلى الطبيب المحلل والأنا الموهن أن يتضافرا ويتحدا ، بالاستناد الى العالم الواقعي ، ضد الاعداء : مطالب الهذا الغريزية ، ومطالب الانا الاعلى الاخلاقية . فثمة ميثاق قد عقد . الأنا السقيم للمريض يعدنا، بصراحة تامة ، بأن يضع تحت متناولنا كل ما يطالعه به ادراكه الذاتي . ونتعهد من جانبنا بالكتمان التام ونضع في خدمته خبرتنا في تاويل المادة الواقعة تحت تأثير اللاشعور . وعلمنا يعوض جهله ويتيح للأنا ان يستعيد بعض المناطق الضائعة من نفسيته وان يحكمها من جديد. وعلى هذا الميثاق يقوم كل الموقف التحليلي .

لكن ما ان نخطو هذه الخطوة حتى نجد في انتظارنا خيبة أولى ، دعوة اولى الى التزام جانب التواضع . فكيما يغدو الأنا ، في اثناء العمل المتضافر ، حليفاً نافعاً ، فلا بد ان يكون محافظاً ، رغم كل الضغوط التي تمارسها عليه القوى المعادية ، على قدر من التماسك ومن فهم مقتضيات الواقع . والحال ان هذا بالتحديد ما بات أنا الذهاني عاجزاً عن تقديمه لنا ، إذ هو لا يستطيع ان يفي بميثاق كهذا . والحق أنه لا يكاد يستطيع ابرامه أصلاً . وسرعان ما ينبذنا ، نحن والعون الذي نأتيه به ، الى تلك الاقسام من العالم الخارجي التي ما عادت تعني له شيئاً . وعندئذ ندرك أنه لا مناص لنا من الاقلاع عن محاولة تطبيق منهجنا العلاجي على الذهانيين . وقد يكون عدولنا هذا نهائياً ، وقد يكون ايضاً مؤقتاً. فلا يدوم إلا الى الوقت الذي يتسنى لنا فيه ان نكتشف ، لهذه الفئة من المرضى ، منهجاً اكثر مواتاة .

غير ان هناك فريقاً آخر من المرضى النفسيين ، يشبهون الذهانيين في

الظاهر شبهاً كبيراً، وأعني بهم الجمهرة الغفيرة من العصابيين المعانين من اصابات خطيرة . فأسباب مرضهم وأولياته الإمراضية مماثلة فيما نفترض او مشابهة على الاقل لأسباب المرض وأوالياته لدى الذهانيين. إلا أن أناهم دلل ، بالرغم من كل شيء ، على قدرة اكبر على المقاومة وعلى درجة أثبت من التنظيم . ولا يبارح عدد كبير من هؤلاء المرضى ، رغم اضطراباتهم وما ينجم عنها من متاعب لهم ، اطار الحياة الواقعية ، ويبدون استعدادهم احياناً لتقبل مساعدتنا . وحالة هؤلاء هي الجديرة منا بالاهتمام ، وسوف نرى الى أي حد وبأي الطرق نستطيع ان « نشفيهم » .

هانحنذا قد عقدنا ميثاقنا مع العصابيين : صدق تام مقابل كتمان مطلق . أفليس دورنا هذا دور معرِّف مدني ؟ كلا ، فالفارق كبير . فنحن لا نسأل المريض ان يخبرنا بما يعلمه ، وبما يكتمه عن الآخرين فحسب ، بل كذلك **بما لا يعلمه** . ولهذا نشرح له بالتفصيل ما نعنيه بالصدق . ونلزمه بأن يصدع **لقاعدة التحليل الاساسية** التي يتعين من الآن فصاعداً ان تحكم كل سلوكه حيالنا : فعلى المريض أن يبوح لنا ليس فقط بما يمكن له ان يقوله عن قصد وبطوع ارادته ، أي بما يسرِّي عنه وكأنه اعتراف ، بل كذلك بكل ما يطالعه به استبطانه لنفسه ، وبكل ما يرد الى ذهنه حتى لو كان البوح به **مستكرهاً** عنده ، بل حتى لو بدا له **عديم الجدوى** ، بله **سخيفاً** . فإن أفلح المريض ، بعد هذه الوصايا ، في قمع نقده الذاتي ، كاشفنا بجملة من المواد والافكار والخواطر والذكريات ، مما يقع تحت تأثير الشعور ومما لا يعدو ان يكون في كثير من الاحيان من مشتقاته المباشرة . وعندئذ يتسنى لنا أن نخمن طبيعة المادة المكبوتة لدى المريض ، وأن نكاشفه بها ، وأن نمكِّن أناه من ان يعرف اللاشعور معرفة افضل .

لكن حذار من الافتراض أن دور الأنا لديه يقتصر على الإطاعة السالبة ، وعلى مدنا بالمادة المطلوبة ، وعلى القبول بالتأويلات التي نقدمها له عنها . فثمة جملة اشياء أخرى تحدث ، وبعضها مما نتوقعه ، وبعضها الآخر حري بأن يفاجئنا . والعجيب في الأمر ان المريض لا يقنع بأن ينظر الى محلِّله على ضوء الواقع ، بوصفه سنداً وناصحاً ، يتقاضى أجراً على اتعابه ، وبرضيه هو نفسه ان يكون دوره كدور الدليل الجبلي أثناء تسلق

جبل وعر.كلا،انما يرى المحلِّل في محلِّله بعثاً،تقمصاً لشخص ذي شأن في ماضيه الطفلي،ولهذا يختصه بمشاعر ويظهر تجاهه استجابات كانت تنصب بكل تأكيد على النموذج الاصلي . وسرعان ما ندرك ما لعامل التحويل TRANSFERT هذا من أهمية ما كنا نتوقعها : فهو من ناحية أولى مصدر لمعونة لا تضاهى ، وقد يكون من الناحية الثانية مصدراً لاخطار فادحة . فهذا التحويل **مزدوج الاتجاه**: فهو يتضمن في آن معاً مواقف ودية ايجابية ، واخرى عدائية وسلبية ، تجاه المحلِّل الذي ينزله المريض في العادة منزلة احد والديه : أبيه أو أمه . وما دام التحويل ايجابياً ، فإنه يسدي لنا أجل الخدمات ، إذ يغير الموقف التحليلي برمته وينبذ الى مرتبة ثانوية رغبة المريض العقلانية في التخلص من اوجاعه واسترجاع صحته . وتحل محل هذا الهدف رغبة المريض في أن يحظى برضى المحلِّل وان يظفر باستحسانه ومحبته . وهكذا يصبح التحويل القوة المحركة الحقيقية لمشاركة المريض في العمل التحليلي ، فتحت هذا التأثير يشتد ساعد الانا الضعيف ويأتي المريض أفعالاً ما كان له،لولا ذلك،ان ينجزها.وتزول أعراضه ، ويبدو عليه وكأنه شفي لا لشيء إلا حباً بمحلِّله . غير انه يتعين على هذا الاخير ان يقر بينه وبين نفسه بتواضع بأن المهمة التي أخذها على عاتقه خطيرة من غير ان يشتبه في السلطة الهائلة التي ستمسي في متناوله .

ان موقف التحويل ينطوي بعد على ميزتين اخريين . فإن أحل المريض المحلِّل محل ابيه (أو أمه) ، خلع عليه في الوقت نفسه السلطان الذي يمارسه أناه الاعلى على أناه ، إذ أن والديه ، كما نعلم ، هما أصل هذا الانا الاعلى . هكذا تتاح للانا الاعلى الجديد امكانية القيام **بتربية لاحقة** للعصابي ، فيتسنى له ان يصحح بعض الاخطاء التي تقع تبعتها على التربية التي كان الوالدان قد بذلاها له . وانما هنا تحديداً ينبغي للمحلِّل ان يحاذر إساءة استعمال النفوذ المتحصل له . فمهما يعظم الاغراء لدى المحلِّل في ان يصير لمرضاه مربياً ومثالاً وقدوة،ومهما تستبد به الرغبة في ان يصوغهم على صورته ، فلا مناص له من ان يتذكر أن ذلك ليس هو الهدف الذي يضع نصب عينيه بلوغه في التحليل ، بل أنه سيقترف غلطة فادحة

فيما لو أسلس قياده لهذا النازع . فلو سلك هذا المسلك لكرر ، لا اكثر ، خطأ الوالدين اللذين خنق نفوذهما استقلال الطفل ، ولاستبدل الخضوع القديم بآخر جديد. بل على المحلّل ، حينما يسعى الى تحسين حال مريضه وتربيته ، ان يحترم على الدوام شخصيته . ومبلغ النفوذ الذي يباح له شرعياً أن يمارسه ينبغي ان يتحدد بدرجة الكف في التطور الوجداني للمريض . فبعض العصابيين بقوا طفليين الى حد يوجب ألا يُعاملوا ، حتى في التحليل ، إلا كأطفال .

وتترتب على التحويل ميزة اخرى : فهو يحض المريض على ان يعرض لناظرينا بجلاء شطراً واسعاً من تاريخ حياته . ولولا التحويل ، لما أمدنا في ارجح الظن إلا بمعلومات ناقصة . وهو إذ يفعل ذلك يبدو وكأنه يعيش فعلاً ما يرويه لنا .

لننتقل الآن الى الوجه الآخر للموقف . فبما ان التحويل يكرر الوضع الذي كان عليه المريض حيال والديه ، فإنه يقبس منه ايضاً ازدواجيته . إذ يكاد يكون من المستحيل أن يتفادى المحلّل ان ينقلب الموقف الايجابي منه . في يوم أو في آخر ، الى موقف سلبي وعدائي ، وهذا بدوره بالاجمال تكرار للماضي . فخضوع الطفل لأبيه (إن يكن هو من يمثله المحلل) ، وسعيه الى الفوز بحظوته ، يرجعان في أصلهما الى الرغبة الايروسية التي كان هذا الأب موضوعها . ففي يوم ما ، تفرض هذه الرغبة نفسها في التحويل ايضاً ، وتتطلب إشباعاً ، لكن لا يمكن ان تتمخض ، في الموقف التحليلي ، إلا عن إحباط . فلا مجال لأي علاقة جنسية فعلية بين المرضى والمحلّل ، وحتى اشكال الاشباع الاكثر ارهافاً ، كعلامات الايثار والألفة ، لا يجوز للمحلّل بذلها إلا بحساب . وهكذا يتيح تعالي المحلّل فرصة لانعكاس الاتجاه في التحليل. وارجح الظن ان الامور سارت على المنوال نفسه في طفولة المريض .

ترى ألا يمكن القول ان النتائج العلاجية المحرزة تحت تأثير التحويل الايجابي انما مردها الى **الايحاء** ؟ السؤال وارد . ففي الحالات التي ترجح فيها كفة التحويل السلبي فإن النتائج المحرزة تتبدد مثلما تتبدد ذرات الهشيم حين تذروه الريح.وعندئذ يرى المحلل بذعر ان كده وعناءه

قد ذهبا ادراج الرياح . بل حتى ما اعتبره كسباً فكرياً دائماً للمريض ؛ أي تفهمه للتحليل النفسي ووثوقه بنجع هذا العلاج ، يتلاشى فجأة ويسلك المريض مسلك طفل تعوزه القدرة على الحكم الشخصي ، ويصدق تصديقاً أعمى كل ما يسرده على مسامعه شخص يحبه ويأبى ان يصدق ما يقوله الغرباء . وظاهر للعيان أن خطر حالات التحويل هذه يكمن في تجاهل المريض لطبيعتها الحقيقية وفي اعتباره اياها وقائع جديدة مع انها لا تعدو أن تكون انعكاسات للماضي . فحين يستشعر المريض او المريضة الرغبة الايروسية القوية التي تختفي وراء ستار التحويل الايجابي ، يخيل اليه أنه انغمس في حب جامح ؛ واذا انعكس اتجاه التحويل ، شعر المريض بأنه كان منبوذاً ، وكره محلّله وكأنه عدو ، وتهيأ لترك التحليل . وفي كلا هاتين الحالتين المتطرفتين ينسى الميثاق الذي التزم به في بدء العلاج ويمسي عاجزاً عن المضي في العمل المشترك . ومهمة المحلّل عندئذ أن ينتشل المريض في كل مرة من وهمه الخطر ، وان يبين له تكراراً ان ما يتوهمه واقعاً جديداً ما هو إلا انعكاس للماضي . ويسهر المحلّل ، كيما يحول بين مريضه وبين السقوط في حالة لا سبيل الى انتشاله منها بأية محاكمة عقلية مقنعة ، على ألا تبلغ المشاعر الحبية أو المشاعر العدائية درجتها القصوى . وسبيله الى ذلك ان يحذر المريض في وقت مبكر من هذه الاحتمالات وألا يغفل عن علائمها الاولى حين تظهر . والعناية التي ندير بها التحويل ضمانة اكيدة للنجاح . وحين يفلح المحلل ، كما يحدث عادة ، في إفهام المرضى الطبيعة الحقيقية لظاهرات التحويل ، يجرد مقاوماتهم من أحد اسلحتها القوية ويقلب الاخطار الى مكاسب . وبالفعل ، ان ما عاشه المريض في صورة تحويل لن ينساه ابداً ، وهذا يمثل له قوة اكثر اقناعاً من كل ما اكتسبه بسبل اخرى .

ومما لا نرجوه البتة أن يبادر المريض خارج التحويل الى **العمل** بدلاً من التذكر . وخير ما يمكن ان يفعله ، من وجهة نظرنا ، أن يسلك ما امكنه سلوكاً سوياً خارج نطاق المعالجة وألا يظهر استجابات شاذة إلا في التحويل .

اننا إذ نعلّم الأنا كيف يعرف نفسه معرفة افضل نتوصل الى تقويته

وتعزيزه. بيد اننا نعلم ان هذه هي الخطوة الاولى ليس إلا . فعدم معرفة الذات يعني للأنا خسران قوته ونفوذه ، وهو العلامة الملموسة على انكماشه وتقييده بمطالب الهذا والانا . ولهذا فإننا نبذل نحن أنفسنا في بادىء الأمر مجهوداً فكرياً وندعو المريض الى المشاركة فيه . ونحن نعلم حق العلم أن هذا النوع الاول من النشاط يهدف الى تمهيد الطريق امامنا الى مهمة اخرى أعسر وأشد وعورة يجدر بنا الا ننسى جانبها الدينامي حتى في اثناء العمل التمهيدي . وتتأتى لنا مادة عملنا من مصادر شتى : من اقوال المريض ، من تداعياته الحرة ، من تظاهرات تحويله ، من تأويل احلامه ، واخيراً من **هفواته** . وهذا كله يساعدنا على إعادة بناء خبراته الماضية،ما نسيه وما يدور الآن في داخله من غير أن يفهمه على حد سواء . بيد أنه لا يجوز لنا بحال من الاحوال ان نخلط بين ما نعرفه نحن وما يعرفه هو . ولنحاذر أن نكاشفه حالاً بما نعتقد أننا خمّنّاه في وقت مبكر . ولنقلّب الفكر ملياً قبل ان نقرر ما الوقت المناسب لمكاشفته باستنتاجاتنا ، ولننتظر اللحظة المناسبة التي لا يسهل على الدوام تعيينها . وبصورة عامة ، نحن ننتظر كيما نطلع المريض على استنتاجاتنا وتفاسيرنا ، ان يكون هو نفسه قد أصبح قاب قوسين أو أدنى من اكتشافها . فما بقيت أمامه سوى خطوة واحدة يخطوها نحو هذا التركيب النهائي . أما اذا سلكنا غير هذا المسلك ، فانهلنا عليه بتأويلاتنا قبل ان يتهيأ لها ، فلن يكون منها جدوى أو انها ستثير لديه انفجاراً عنيفاً من المقاومة ، من شأنه ان يربك عملنا بله ان يحول دون مواصلته . أما اذا اخذنا كل الاحتياطات اللازمة ، فسنلاحظ في الغالب أن المريض يؤكد حالاً صحة استنتاجاتنا ويتذكر بنفسه الظاهرة الداخلية أو الخارجية المنسية.وبقدر ما تتطابق روايتنا مع تفاصيل الواقعة المنسية ، يسهل على المريض ان يمحضنا تأييده . وفي هذه الحال تكون معرفتنا قد تطابقت ومعرفته .

بحديثنا عن المقاومة نصل الى الشطر الثاني من مهمتنا ، وهو يفوق الشطر الاول اهمية . فقد رأينا من قبل ان الأنا يدفع عن نفسه تسرب عناصر غير مرغوب فيها وآتية من الهذا اللاشعوري المكبوت بواسطة توظيفات مضادة تكفل سلامتها اشتغال الوظيفة السوية . وكلما رزح الانا

تحت وطأة المزيد من الارهاق تشبث مذعوراً بهذه التوظيفات المضادة ، وذلك بغية الدفاع عما تبقى بحوزتهضد غزوات جديدة . غير ان هذه الميول الدفاعية لا تتفق وهدف العلاج . فنحن نرغب ، على العكس ، في أن نرى الأنا يقدم ، بتشجيع منا ووثوق بمساعدتنا ، على شن هجوم بغية استعادة ما فقده ، وشدة تلك التوظيفات المضادة تقاس بالنسبة الينا بالمقاومات التي تناهض جهودنا . فالأنا تذعره هذه المحاولات التي تبدو له خطرة والتي تتهدده بالألم . وتفادياً لاحتمال تملصه وتهربه ، يخلق بنا ان نعمل باستمرار على تشجيعه وطمأنته . ونحن نطلق على هذه المقاومة ، التي تبقى قائمة طول العلاج وتتجدد كلما انتقلنا الى طور جديد من العمل ، اسم **مقاومة الكبت** ، وان يكن هذا الاسم غير موفق كثيراً . وسنرى ان هذه المقاومة ليست المقاومة الوحيدة التي تواجهنا . ولنلحظ أن التحالفات في هذا الموقف معكوسة بنوع ما ، لأن الانا يقاوم ايحاءاتنا ، بينما يخف اللاشعور ، خصمنا المعهود ، الى نجدتنا لأنه يصبو بطبيعة الحال ، في اندفاعه الصاعد ، الى تخطي الحواجز التي تعترض سبيله ليدلف الى الانا وصولاً الى الشعور . وإن ربحنا القضية بحثنا الانا على التغلب على مقاوماته ، فإن الصراع الذي ينشب يتوالى تحت إشرافنا وبمساندتنا . ومآله غير ذي اهمية : فإما ان يقبل الأنا ، بعد فحص جديد ، بمطلب غريزي كان قد رده من قبل وإما ان يرفضه من جديد ، وهذه المرة بصورة نهائية . وفي الحالتين كلتيهما يكون خطر داهم قد استبعد بالفعل ، ويكون حقل الانا قد اتسع ، فانتفت الحاجة الى تبديد مكلف للطاقة .

ان التغلب على المقاومات هو ، بين جميع مراحل التحليل ، اكثرها استغراقاً للوقت واكثرها تطلباً للعناء . غير ان الجهد المبذول يؤتي ثماره إذ يستثير في الأنا تعديلاً ملائماً يدوم طول الحياة ، كائناً ما كان أصلاً مصير التحويل . ونكون في الوقت نفسه قد بذلنا جهدنا لإلغاء التعديل الذي أحدثه اللاشعور في الانا . وبالفعل ، في كل مرة لاحظنا فيها وجود مشتقات من اللاشعور في الأنا ، كشفنا النقاب عن أصلها اللامشروع وحثثنا الانا على اطراحها . ولنتذكر ان احد الشروط الاساسية لتعهدنا بالعلاج هو ألا يكون تسرب عناصر لاشعورية الى الانا قد فاق حداً معلوماً .

طرداً مع تقدم عملنا وتعمق معرفتنا بنفسية العصابيين ، نلاحظ بمزيد من الوضوح باستمرار ان ثمة مصدرين آخرين للمقاومة ، عاملين جديدين يستأهلان كل اهتمامنا ، وما كان لأي منهما أن يؤخذ بعين الاعتبار عند إبرام ميثاقنا ، اذ كان المريض يجهل بهما جهلاً مطبقاً، ثم انهما كليهما لا ينبعثان من أنا المريض ، ومن الممكن ان نجمع بينهما تحت اسم « الحاجة الى المرض » او « الحاجة الى التألم » غير أن أصل واحدهما مختلف عن الآخر ، وان كانا من طبيعة متشابهة . أول هذين العاملين هو الشعور بالاثم ، أو وعي الفرد لكونه مذنباً كما يقول بعضهم ، متجاهلاً كون المريض لا يستشعره ولا يعرفه.وبديهي أن مرد هذا الشعور الى المقاومة التي تصدر عن أنا أعلى صار صارماً قاسياً . فلئن كتب على المريض ألا يشفى ، بل على العكس ان يبقى مريضاً فلأنه لا يستأهل أحسن من هذا المصير . وهذه المقاومة ، وان كانت لا تربك عملنا الفكري ، تحكم عليه بعدم النجع . ولئن أتاحت لنا في كثير من الاحيان ان نلغي هذا الشكل أو ذاك من أشكال العصاب ، فإنها سرعان ما تستبدله بشكل آخر، وربما بمرض عضوي ما . هذا الشعور بالاثم يفسر ايضاً كيف يمكن لبعض العصابيين ممن أصيبوا باضطرابات خطيرة ، ان يشفوا أو أن تسجل حالتهم تحسناً اذا ما ألمت بهم مصائب فعلية . ذلك ان المهم في الواقع شيء واحد لا غير : أن يشقى المرء ويتعس كائنة ما كانت الوسيلة . وان الاستسلام الاخرس الذي يتحمل به امثال هؤلاء المرض مصيراً لا يخلو من قسوة فائقة أحياناً ليبعث على الدهشة حقاً ، ولكنه ينم ايضاً عن الكثير .وحسبنا، كيما نكافح هذه المقاومة ، أن نجعلها واعية وأن نحاول القضاء تدريجياً على الأنا الاعلى العدائي.

ولسنا نستطيع بمثل هذه السهولة أن نبرهن على وجود مقاومة اخرى ، نقف حيالها عاجزين كل العجز اصلاً . فإننا لنلقى بين العصابيين افراداً انقلبت لديهم غريزة البقاء، كما تشهد استجاباتهم كافة ، الى نقيضها .فهم، فيما يبدو ، لا همّ لهم غير ان ينزلوا الأذى بأنفسهم ويدمروا ذواتهم. وربما انتمى الى هذه الفئة الاشخاص الذين ينتهي بهم الأمر الى الانتحار.ونحن نعتقد أنه قد حدثت لدى هؤلاء اختلالات غريزية بعيدة

المدى ، فحررت مقادير مفرطة من غريزة التدمير ووجهتها الى الداخل . وهذه الطائفة من المرضى لا يطيقون فكرة احتمال الشفاء بفضل علاجنا ، فلا يدعون وسيلة إلا ويلجؤون اليها ليحبطوا جهودنا . لكن لنعترف على كل بأننا لم نتوصل بعد الى تفسير هذه الحالة على اكمل وجه .

لنلق ، من جديد ، نظرة على الموقف الذي اصطنعناه بمحاولتنا نجدة أنا معصوب . فهذا الأنا يقف عاجزاً عن الاضطلاع بالمهمام التي يفرضها عليه العالم الخارجي ، بما فيه المجتمع البشري . وجميع تجاربه الماضية تفلت منه ، ومعها شطر كبير من ذخيرته من الذكريات . ونشاطه مكفوف بفعل تحريات أناه الاعلى الصارمة ، وطاقته تتبدد في جهود دفاعية لا طائل فيها لصد مطالب الهذا . علاوة على ما أصاب تنظيمه من خلل نتيجة لهجمات الهذا اللامنقطعة . وبالنظر الى عجزه لاحقاً عن الوصول الى تركيب حقيقي ، يتفكك ، وتمزقه نوازع متناقضة ومنازعات لم تسوَّ وشكوك لم تبدد . وفي بادىء الأمر نسمح لهذا الأنا الضعيف لدى مريضنا بالمشاركة في عملنا التأويلي الذهني الصرف مما يفسح في المجال لسد ثغرات مقتنياته النفسية بصورة مؤقتة ، ثم نحول الينا سلطة الانا الاعلى ، ونحث الانا على التصدي لكل مطلب من مطالب الهذا وعلى التغلب على المقاومات التي تظهر عندئذ . وفي الوقت نفسه نعيد الامور الى نصابها في الأنا بكشفنا ما تسرب اليه من مضامين اللاشعور ونزعاته ، وبإخضاعنا اياها للنقد بردها الى أصلها . وانما باضطلاعنا بوظائف شتى ، وبتحولنا في نظر المريض الى سلطة وبديل عن ابويه ، الى معلم ومرب ، نتمكن من إسداء النفع له . وخير ما يمكن ان نفعله من أجله أثناء ادائنا دور المحلل ، أن نرد الى مستوى سوي سيرورات اناه النفسية ، وان نحول ما صار لاشعورياً أي ما كبت الى حال القبشعور ، ليعود من ثم الى حوزة الأنا . اما من ناحية المريض ، فان بعض العوامل العقلانية تعمل لصالحنا : الحاجة الى الشفاء الناشئة عن آلامه ، الاهتمام الفكري الذي نتوصل الى إثارته لديه بنظريات التحليل النفسي واكتشافاته، وفي المقام الأول التحويل الايجابي تجاهنا . غير ان ثمة عوامل اخرى تعمل ضدنا : التحويل السلبي ، والمقاومة التي يقابل بها الأنا تحرير الكبت ، أي الألم

الناشىء عن العمل الشاق المفروض عليه ، وشعور الاثم الناشىء عن علاقات الانا بالأنا الاعلى ، واخيراً الحاجة الى المرض المتأتية عن تغيرات عميقة في التنظيم الغريزي، وهذان العاملان الاخيران هما اللذان يتيحان لنا أن نحكم في مدى خطورة الحالة او بساطتها . وعلاوة على هذه العوامل كلها ، ثمة عوامل اخرى ، قليلة العدد ، تستأهل الذكر، ومنها ما هو موائم ومنها ما هو غير موائم . ومن العوامل المعاكسة لنا قدر من العطالة النفسية ، ونقص في حركية الليبيدو الذي يرفض التخلي عن تثبيتاته ، وبالمقابل تلعب قدرة المريض على تصعيد الغرائز دوراً هاماً ، وكذلك قدرته على التسامي بنفسه فوق مستوى الحياة الغريزية الفجة ، واخيراً القوة النسبية لوظائفه الفكرية .

هكذا نرانا منقادين الى الاستنتاج بأن النتيجة الختامية للصراع الذي نخوض غماره تتوقف على علاقات **كمية** ، على مبلغ الطاقة التي نعبئها لدى المريض لصالحنا بالقياس الى كمية الطاقة المتاحة للقوى التي تعمل ضدنا . وايانا وخيبة الأمل ، بل لنفهم على العكس الواقع . فالله يقف ، هنا ايضاً ، بجانب الاقوى ، ولنقر بأن نصرنا ليس على الدوام محققاً، ولكننا نعرف على الأقل ، في العادة ، لماذا لم يحالفنا التوفيق . ومن أصر على أن ينظر الى ابحاثنا من الناحية العلاجية وحدها ، فقد يشيح عنا ازدراء بعد هذا الإقرار . أما فيما يتعلق بنا نحن ، فان التقنية العلاجية لا تهمنا هنا إلا بقدر ما تستخدم طرائق سيكولوجية ، وليس لأي سبب آخر في الوقت الراهن. وقد يعلمنا المستقبل كيف نؤثر تأثيراً مباشرا ، بالاستعانة ببعض المواد الكيمياوية، على كميات الطاقة وتوزيعها في الجهاز النفسي . ولربما اكتشفنا امكانيات علاجية اخرى لا تخطر لنا ببال في الوقت الراهن . غير ان التقنية التحليلية النفسية هي وحدها المتاحة لنا حالياً، ولهذا يجدر الامتناع عن الازدراء بها، بالرغم من محدوديتها .

الفصل السابع
مثال للعمل التحليلي النفسي

كوّنا فكرة عامة عن الجهاز النفسي ، عن العناصر والاعضاء والهيئات التي يتألف منها ، عن القوى التي تعمل فيه ، وعن الوظائف الموكولة الى مختلف أقسامه . وما الأعصبة والاذهنة إلا الحالات التي تتظاهر فيها اضطرابات هذا الجهاز الوظيفية . ولئن اتخذنا من الاعصبة موضوعاً لدراستنا ، فلأنها تبدو هي وحدها المتقبلة لطرائقنا في الاستقصاء السيكولوجي . وفي الوقت الذي نحاول فيه التأثير على الاعصبة ، نجمع بعض ملاحظات من شأنها أن توضح لنا أصلها وكيفية ظهورها .

لنذكر بادىء ذي بدء واحدة من نتائجنا الرئيسية . فالاعصبة ، خلافا للامراض المعدية مثلاً ، ليس لها علل نوعية . فعبثاً نبحث فيها عن عوامل مُمْرضة . وانما هي ترتبط بالحالة التي توصف بالسواء بسلاسل انتقالية ، ثم انه لا وجود لحالة موصوفة بالسواء إلا وامكن ان نكتشف فيها أثراً من آثار الحالة العصابية . ولا يكاد يختلف العصابيون عن غيرهم من الناس في استعداداتهم ، ولا في الخبرات التي يمرون بها ، ولا بالمشكلات التي يواجهونها .فما الداعي اذن لأن تكون حياتهم اكثر شقاء وعناء ، ولماذا يعانون اكثر من غيرهم من مشاعر التنغيص والحصر والحزن ؟

ليس الاهتداء الى جواب بعسير . فهم يكابدون من **اختلالات كمية في التناسق** ، هي السبب في عدم تكيفهم وفي عذاباتهم العصابية . وعلينا ان نبحث عن العلة المحددة لجميع صور النفسية البشرية في

الفعل المتبادل للاستعدادات الوراثية وللاحداث العارضة . وعلى هذا ، قد تكون غريزة بعينها أقوى او أضعف مما ينبغي جبلّياً ، كما يمكن لملَكة بعينها ان يتوقف نموها السوي أو ان تبقى منقوصة التطور . وبالمقابل، تؤثر الانطباعات والاحداث الخارجية في الافراد بقدر متفاوت من القوة ، وما يتحمله فرد منهم قد لا يطيقه فرد آخر . وهذه الفروق الكمية هي التي تعين تنوع النتائج .

على اننا سرعان ما نكتشف ان هذا التفسير غير كاف . فهو اعم مما ينبغي ويريد ان يتجاوز في التفسير طاقته. والعلل التي تقدمت الاشارة اليها تصدق على جميع حالات العذاب والضيق والعجز النفسية ، غير ان هذه الحالات لا يصح وصفها كلها بأنها عصابية . فالاعصبة تتميز ببعض السمات النوعية ، وهي مصدر للون خاص من الوان الشقاء . ولهذا يتراءى لنا اننا واجدون لها عللاً نوعياً . او نفترض ايضاً ان النفسية تخفق بسهولة ملحوظة امام بعض المهام المفروض عليها أن تقوم بها . وعلى هذا فإن الطابع الخاص ، والغريب في كثير من الاحيان ، الذي تتجلبب به الظاهرات العصابية ، قد يكون نابعاً من هذه الواقعة ، ولكن ذلك لا يلزمنا البتة بالعدول عن توكيداتنا السابقة . فإن صح أن الاعصبة لا تختلف في جوانبها الاساسية عن الحالة السوية ، فإن دراستها تعد بإغناء معرفتنا بهذه الحالة السوية بمعطيات ثمينة . ولربما اكتشفنا عندئذ « النقاط الضعيفة » في تنظيم سوي .

ان الفرضية التي تقدمنا بها لها ما يؤيدها . فالخبرة التحليلية النفسية تدل ان ما يواجهنا هو على الدوام مطلب غريزي ما امكننا التغلب عليه أو ما امكن التغلب عليه إلا بصورة منقوصة ، وكذلك ان مرحلة بعينها من الحياة هي المرحلة المناسبة الوحيدة أو الرئيسية لظهور العصاب . وهذان العاملان : طبيعة الدافع الغريزي والمرحلة الحياتية ، ينبغي ان يدرسا على حدة ، رغم ترابط تأثيرهما في كثير من الاحيان .

فيما يتصل بالمرحلة الحياتية نستطيع ان نقول ما نريد قوله

بوثوق كافٍ . إذ يبدو ان الاعصبة لا تكتسب إلا في فترة الطفولة الأولى (حتى سن السادسة) ، وان لم تظهر اعراضها إلا في زمن متأخر كثيراً . ويتبدى العصاب الطفلي احياناً لأجل وجيز من الزمن ، أو قد يمر من غير أن يسترعي الانتباه . ومهما يكن من أمر ، فإن الطفولة هي منطلقه (من المحتمل ان تشذ عن هذه القاعدة الاعصبة المسماة بالرضية والتي يحدثها هلع ماحق أو صدمات بدنية خطيرة مثل اصطدام القطارات أو الجروف الثلجية ، الخ ؛ والحق أن صلاتها بالعامل الطفلي لم تزل مستعصية على مباحثنا) . ويسير علينا أن ندرك لماذا يقع اختيار الاعصبة على الطفولة الأولى لتظاهرها . فالاعصبة ، كما نعلم ، آفات تصيب الأنا ، فلا غرو ألا يتوصل الأنا ، ما دام ضعيفاً ، غير مكتمل ، عاجزاً عن المقاومة ، الى التغلب على المشكلات التي لو واجهها في زمن لاحق لوجد لها حلها بلا عناء على الاطلاق (ان المطالب الغريزية الداخلية ، كالتنبيهات الخارجية ، تفعل فعلها يومئذ كرضات ، ولا سيما اذا ما لاقتها بعض الاستعدادات) . فالأنا البالغ الضعف ، العاجز ، يسعى الى حماية نفسه بمحاولته الهرب (ضروب الكبت) ، وهي وسيلة يتضح فيما بعد عدم نجعها وتنصب في وجه كل نمو لاحق عقبة دائمة . والاذى الذي يلحق بالأنا من جراء تجاربه الأولى يبدو لنا غير متناسب مع هذه التجارب ، ولكن حسبنا ان نتذكر، على سبيل المقارنة ، الفارق بين الآثار التي تخلفها وخزة إبرة (كما أوضح ذلك رو(١)) في كتلة من الخلايا الإنتاشية في طور الانقسام وبينها في الحيوان المكتمل النمو والخارج من هذه الخلايا . ان ما من كائن انساني بمنجى من الحوادث الرضية ، وما من أحد يفلت من الكبت الذي تتسبب فيه هذه الرضات . وربما كانت استجابات الأنا الخطرة هذه ضرورية للفرد لتمكينه من بلوغ هدف آخر ، مرتبط بالمرحلة الحياتية نفسها . فالكائن البدائي الصغير يتعين عليه أن يتحول ، في عدد يسير من الاعوام ، الى

(١) اميل رو : طبيب فرنسي (١٨٥٣ ـ ١٩٣٣) ، تلميذ باستور ، مكتشف علاج الخناق بمصل الخيل ، وله مباحث في الذيفانات . « م ».

كائن انساني متحضر ، وان يقطع ، في زمن بالغ القصر ، شوطاً واسعاً من الرقي الحضاري الانساني . وهذه الظاهرة تتاح لها الامكانية بفضل استعدادات وراثية ، ولكنها لا تكاد تتحقق أبداً بدون مؤازرة التربية وتأثير الوالدين . فالمربون والأهل يحدون ، بالتحظيرات والعقوبات ، من نشاط الأنا ويشجعون بل يفرضون عملية الكبت . حقيق بنا اذن ألا نغفل عن دور الحضارة بين جملة العلل المحددة للأعصبة . فالهمجي لا يشق عليه ـ لنقر بذلك ـ ان يعيش في عافية ، على حين ان هذه مهمة شاقة على المتحضرين . وتبدو الرغبة في امتلاك انا قوي ، غير مكفوف ، طبيعية ، بيد ان هذا التطلع ، كما يعلِّمنا العصر الذي نعيش فيه معاكس في جوهره للحضارة . والحال ان متطلبات هذه الاخيرة تتمثل بالتربية العائلية ، فلا نغفلن اذن عن إدراج هذه الخاصية البيولوجية للنوع البشري ـ التبعية الطفلية الطويلة الأمد ـ في عداد أسباب الأعصبة .

اما فيما يتعلق بالنقطة الاخرى : العامل الغريزي النوعي ، فإننا نكتشف هنا تبايناً طريفاً بين النظرية والتجربة . فليس ثمة ما يحول ، من الناحية النظرية ، دون الافتراض بأن كل مطلب غريزي ، كائناً ما كان ، يتحتم أن يتسبب في ضروب متماثلة من الكبت مع نتائجها . غير اننا نشاهد على الدوام ، وبقدر ما نملك ان نحكم ، ان التنبيهات التي تلعب هذا الدور الإمراضي تنبعث من دوافع غريزية جنسية جزئية . وتشكل الاعراض العصابية على الدوام اما إشباعات بديلة لدافع غريزي جنسي ما ، وإما إجراءات لإعاقة هذه الإشباعات ، وإما في الاعم والأغلب تسوية بين الاثنين مشابهة للتسويات التي تحدث في اللاشعور ، تبعاً لقوانينه الخاصة ، بين الاضداد . ولا يسعنا بعد أن نسد الفجوة في نظرياتنا ، ومما يزيد في صعوبة الوصول الى قرار نهائي كون أغلب النوازع الجنسية ليست ايروسية خالصة ، بل تنبع من مزيج من دوافع غريزية ايروسية ومن دوافع غريزية تدميرية . على انه لا مجال للشك في ان الدوافع الغريزية التي تتظاهر فيزيولوجياً باعتبارها ذات طبيعة جنسية تلعب دوراً اعظم من المتوقع في تسبيب

الأعصبة . فهل هذا الدور حصري ؟ لسنا نستطيع بعد ان نقطع برأي . وينبغي ان نتذكر ان ما من وظيفة قمعت قمعاً شديداً وعلى نطاق واسع خلال مسيرة الحضارة كالوظيفة الجنسية . وعلى النظرية أن تقنع بقرائن طفيفة من شأنها ان تكشف عن ارتباط اوثق ، ومن ثم فإن الطور الأول من الطفولة ، الذي يشرع فيه الأنا بالتمايز عن الهذا ، هو ايضاً ، كما تدلنا المشاهدة ، عهد التفتح الجنسي الأول الذي يضع له حداً طور الكمون . والحال أنه ليس من قبيل المصادفة والاتفاق أن يغرق هذا الطور المبكر ، البالغ الاهمية ، في لجة النساية الطفلية في زمن لاحق . وأخيراً ، إن التعديلات البيولوجية التي تطرأ على الحياة الجنسية ، كتطور الوظيفة على مرحلتين كما تقدمت الاشارة ، وزوال الطابع الدوري للتهيج الجنسي والتبدل الذي يصيب العلاقة بين حيض الانثى وتهيج الذكر ، إن جميع هذه التجديدات في الجنسية لها بكل تأكيد اهمية جلى فيما يتصل بتطور الحيوان نحو الانسان . وانما على عاتق العلم مستقبلاً تقع مهمة جمع هذه المعطيات المتفرقة ليستخلص منها رؤية جديدة . والثغرة هنا قائمة لا في علم النفس ، وانما في علم الاحياء . ولعلنا لا نعدو الحق ان قلنا ان نقطة الضعف في تنظيم الأنا تكمن في سلوكه ازاء الوظيفة الجنسية ، كما لو أن التعارض البيولوجي بين حفظ الذات وحفظ النوع وجد هنا تعبيره السيكولوجي .

لقد قيل عن الطفل إنه ابو الراشد من وجهة النظر السيكولوجية ، وإن خبرات أعوامه الأولى يكون لها أبلغ الوقع على امتداد حياته اللاحقة . والتجربة التحليلية تؤكد صحة هذا القول . ولهذا السبب فإن اكتشاف حدث مركزي طرأ في عهد الطفولة يبتعث فينا اهتماماً جلاً . وينبغي ان ينصب انتباهنا في المقام الأولى على انعكاسات بعض التأثيرات التي يتواتر حدوثها وإن كانت لا تطال الاطفال جميعاً : محاولات اغتصاب الصغار من قبل كبار ، التغرير بهم من قبل أطفال آخرين يكبرونهم سناً (اخوة أو اخوات) ، واخيراً ـ وهو شيء قد لا يدخل في باب التوقع ـ الانطباع الذي تخلفه الملاحظة السمعية أو

البصرية للاتصال الجنسي بين الكبار (بين الوالدين) ، وهذا في مرحلة من العمر يحسب الناس أن أشباه هذه المشاهد لا توقظ فيها اهتماماً لدى الطفل ، ولا ترقى الى مداركه ، ولا تنحفر في ذاكرته . ومن اليسير ان نتبين كم هو كبير الدور الذي تلعبه أشباه هذه الوقائع في ايقاظ قابلية الطفل الجنسية ، وكيف تصب دوافعه الغريزية الجنسية الخاصة عندئذ في قنوات قد لا يتأتى لها ان تبارحها ابداً غب ذلك . وبما ان هذه الانطباعات تخضع للكبت إما مباشرة وإما لدى معاودتها الانبجاس في صورة ذكريات ، فإنها توفر جواً مؤاتياً لظهور إجبار COMPULSION عصابي يحول ، لاحقاً ، بين الأنا وبين التحكم بالوظيفة الجنسية ، وقد يدفع به الى العزوف عنها . ويتولد عن رد الفعل الاخير هذا عصاب ؛ ولكن اذا لم ينشأ هذا العصاب ، فقد تنمو انحرافات شتى ، بل قد يحدث انقلاب شامل في الوظيفة ذاتها على ما لها من اهمية قصوى إن للتناسل وإن لمسيرة الحياة بكاملها .

ومهما تكن هذه الحالات بعيدة المغزى ، فإن موقفاً آخر هو الذي يستأثر باهتمامنا ، موقفاً كتب على كل طفل ان يخبره ، وينجم بالضرورة عن تبعيته الطويلة الأمد وعن حياته في بيت أهله ، أعني به **عقدة اوديب** التي سميت هذه التسمية لأن مضمونها الاساسي متضمَّن في الاسطورة الاغريقية عن الملك اوديب الذي شاء حسن الحظ ان تصلنا قصته كما رواها مؤلف مسرحي كبير[٢] .

فقد قتل البطل الاغريقي أباه وتزوج أمه . صحيح أنه فعل ذلك دون علم منه لأنه كان يجهل ان الأمر يتعلق بوالديه ، لكن هذا تحريف للموضوعة التحليلية يسهل فهمه ، وربما ليس منه مناص .

علينا الآن ان نقدم وصفاً مستقلاً لتطور الصبيان والبنات (الرجل والمرأة) ، إذ يجد هنا فارق الجنسين لأول مرة تعبيره السيكولوجي . ويواجهنا هنا لغز مستغلق ، معضلة تطرحها واقعة بيولوجية ، واقعة وجود الجنسين . وعند حدود هذه الواقعة تقف معارفنا ، إذ لا نملك ان نردها ـ الواقعة ـ الى شيء آخر . ولم يسهم

---

(٢) هو سوفوكليس . « م » .

التحليل النفسي بأي قسط في حل هذه المعضلة التي هي برمتها في أرجح الظن من طبيعة بيولوجية . واننا لا نلتقي في النفسية الا انعكاسات لهذا التعارض الكبير ، وتفاسيرنا تصطدم بصعوبة كنا نشتبه منذ زمن بعيد بسرها : فالفرد لا تأتي استجاباته مطابقة لجنسه فقط ، بل هو منفتح ايضاً ، الى حد ما ، لاستجابات الجنس الآخر ، كما أن جسمه يحتفظ ، الى جانب الاعضاء الجنسية المكتملة النمو ، ببقايا ضامرة - وفي الغالب لا عمل لها - من اعضاء الجنس الآخر . وكيما نميز الذكر من الانثى ، من الناحية النفسية ، نلجأ الى معادلة اختبارية ، اصطلاحية ، يعوزها البرهان المقنع . فنحن نطلق صفة المذكر على كل ما هو قوي وفعال ، وصفة المؤنث على كل ما هو ضعيف وسلبي . وتثقل واقعة الثنائية الجنسية BISEXUALITÉ النفسية بوطأتها على أبحاثنا ، وتجعل كل وصف شاقاً .

ان الموضوع الايروسي الأول للطفل هو ثدي أمه الذي يغذيه ، والحب يرتكز الى إشباع الحاجة الى الاقتيات . ومن المحقق ان الطفل لا يميز في البداية الثدي المتاح له من جسمه هو . وانما عندما يلحظ الطفل ان هذا الثدي يغيب عنه تكراراً يعزوه الى مصدر خارجي ويعتبره مذّاك فصاعداً موضوعاً ، موضوعاً مشحوناً بجزء من التوظيف النرجسي الأول ، ثم لا يعتم هذا الموضوع ان يكتمل ليصير شخص الأم كله . فهذه الاخيرة لا تكتفي بتغذية الطفل ، بل تعنى به ، فتنبه فيه احساسات جسمية شتى ، منها ما هو مبهج ومنها ما هو مستكره . وبفضل ما تبذله له من عناية ، تغدو مغويته الأولى . ومن خلال هاتين العلاقتين ، تكتسي الأم أهمية فريدة ، لا تضاهى ، لا تحول ولا تزول ، وتغدو لكلا الجنسين موضوع الحب الأول والاقوى ، نموذج كل علاقة حب لاحقة . وترجح كفة العامل السلالي على كفة العوامل الشخصية ، العارضة ، رجحاناً ماحقاً ، بحيث يستوي ان يكون الطفل قد رضع ثدي أمه فعلاً أو تغذى من البزازة من غير ان يعرف قط عناية الأم وحنانها . والتطور واحد في الحالتين . بل قد يحدث في الحالة الاخيرة أن يشتد الحنين لاحقاً ويقوى . ومهما تطل فترة رضاعة الطفل من

ثدي أمه ، فسيقيم على اقتناع دائم ، بعد الفطام ، بأن فترة رضاعته كانت قصيرة وشحيحة .

ان تقديمنا هذا لا يخلو من فائدة ، وسيتيح لنا ان نفهم شدة عقدة اوديب . فحين يدخل الصبي (في نحو السنة الثانية او الثالثة) في الطور القضيبي من تطوره الليبيدوي ، وحين يبدأ بأن يتعرف ويستشعر الاحساسات الملذة التي يمده بها عضوه الجنسي ، وحين يتعلم أن يظفر بها وفق هواه بالإثارة اليدوية ، يصبح عاشقاً لأمه ويتمنى لو يمتلكها جسمانياً على النحو الذي اتاحت له تخمينه مشاهداته المتعلقة بالحياة الجنسية وحدوسه . ويحاول إغراءها بعرضه أمامها قضيبه الذي تملؤه حيازته فخراً . وبكلمة واحدة ، تحضه رجولته المبكرة الاستيقاظ على التطلع الى الحلول لديها محل أبيه الذي كان حتى ذلك الحين نموذجا محسوداً لما يتمتع من قوة جسمانية ظاهرة ومن حظوة . اما الآن فإن الطفل يرى في ابيه منافساً بوده لو يزيحه من طريقه . ولئن أتيح للصبي الصغير ان يشاطر أمه احيانا فراشها في اثناء تغيب ابيه ، فإنه لا يلبث ان يقصى عنه متى ما عاد هذا الاخير ، فيرتبط رحيله بالسرور وأوبته بالخيبة . تلكم هي عقدة اوديب التي قبستها الاسطورة الاغريقية من العالم الاستيهامي الطفلي لتنقلها الى الواقع المزعوم . وتدخر حضاراتنا الراهنة نهاية رهيبة على الدوام لهذه العقدة .

تفهم الام حق الفهم أن تهيج طفلها الجنسي منصب عليها . ويأتي يوم تقول فيه بينها وبين نفسها إنه لا يجوز ترك الحبل على غاربه، ويرسخ في اعتقادها انها تحسن صنيعاً ان حظرت عليه الملامسات الاستمنائية . ولا يؤتي الحظر مفعولاً يذكر ، ولا يستتبع في أحسن الاحوال الا تعديلاً في طريقة الإشباع الذاتي . وتلجأ الأم في خاتمة المطاف الى الاجراءات الشديدة. فهي تهدد الطفل بأن تجرده من جسم الجريمة ، وتعلن عادة ، كيما تجعل تهديدها أشد وقعاً وأقرب الى التصديق ، أنها ستعهد الى الاب بالتنفيذ ، وأنها ستكاشف هذا الاخير بكل شيء ، ليتولى من ثم بنفسه ، على حد ما تقول ، بتر القضيب ،

والغريب في الامر ان هذا الوعيد لا يؤتي مفعوله ما لم يتحقق قبله أو بعده شرط آخر . فالطفل لا يصدق احتمال عقاب كهذا ، ولكنه اذا تذكر ، ساعة التهديد ، انه رأى من قبل اعضاء تناسلية انثوية ، أو اذا حدث له بعيد ذلك ان وقع نظره على هذه الاعضاء التي ينقصها ذلك الشيء القيّم ، حمل عندئذ على محمل الجد الوعيد ، وعانى ، تحت وقع **عقدة الخصاء** ، أقسى رضة في مطلع حياته[٣] .

ان للتهديد بالخصاء آثاراً عديدة لا تقع تحت حساب ، وتؤثر في جميع علاقات الصبي الصغير بأبيه وأمه ، وفي زمن لاحق في صلاته بالرجال والنساء إجمالاً . وكثيراً ما تنوء ذكورة الطفل تحت وقر هذه الصدمة الأولى . وكيما ينقذ عضو ذكورته يعدل عدولاً شبه تام عن امتلاك أمه ؛ وكثيراً ما يدمغ هذا الحظر جنسية الطفل طول حياته . فإن كان المركّب الانثوي ، كما ذكرنا ، قوياً لديه ، فإنه يزداد قوة بفعل التهديد الموجه الى ذكورته . فنراه يأخذ تجاه ابيه موقفاً سلبياً ، شبيهاً بذاك الذي يعزوه الى أمه . ولقد يحمله التهديد على الاقلاع عن الاستمناء ، ولكن ليس عن التخيلات التي تصاحبه . بل على العكس من ذلك ، فالتخيل ، الذي هو الشكل الوحيد المتبقي له للإشباع الجنسي ، يزداد نشاطاً عن ذي قبل ، وإذ يتماهى ، في هذه التخيلات ، مع أبيه كما من قبل ، فإنه يتماهى ، وربما بقدر اكبر ، مع أمه . وتجد مشتقات هذه التخيلات الاستمنائية ومنتجاتها المعدلة منفذاً لها الى الانا الداخلي للطفل وتسهم في تكوين طبعه . وليست انوثته وحدها هي

(٣) الخصاء موجود ايضاً في اسطورة اوديب. فالبطل يفقأ بالفعل عينه عقاباً لنفسه على جريمته ، وهذه الفعلة ، كما تثبت الأحلام ذلك ، بديل رمزي عن الخصاء . وليس من المستبعد ان يكون الهلع الشديد الذي يبتعثه هذا التهديد مرده جزئياً الى أثر ذاكري سلالي ، من مخلفات حقبة ما قبل التاريخ حين كان الأب الغيور يبتر بالفعل اعضاء ابنه التناسلية اذا ما رأى فيه منافساً له على امرأة . وثمة عادة قديمة جداً هي الختان - بديل رمزي آخر للخصاء - لا يمكن فهمها الا على انها تعبير عن خضوع للارادة الابوية (انظر طقوس البلوغ لدى البدائيين) . والوقائع التي تكلمنا عنها لم تدرس بعد لدى الشعوب وفي الحضارات التي لا تقمع الاستمناء الطفلي .

التي يشتد عودها ، بل ان خوفه من ابيه وكرهه لها يزدادان قوة . وتتراجع ذكوره الصبي الصغير القهقرى ، ان جاز القول ، ويقف من ابيه موقف التمرد . وهذا الموقف يملي عليه لاحقاً ، وعلى نحو قهري ، سلوكه في المجتمع. وكثيراً ما يحتفظ الصبي الصغير في هذه الحال بآثار من تثبيته الايروسي على أمه ، هذا التثبيت الذي يفصح عن نفسه بتبعية مفرطة لها ، وبموقف خانع تجاه المرأة بصفة عامة . وإذ لا يعود يجرؤ على عشق أمه ، فإنه لا يريد ايضاً ان يجازف بفقدان محبتها له ، لأنها قد تشي به حينئذ عند ابيه وتسلمه للخصاء . وتخضع هذه السيرورة بجملتها ، بشروطها ونتائجها التي لم نعرض إلا لعدد ضئيل منها ، لكبت شديد . وبمقتضى القوانين التي تحكم الهذا اللاشعوري ، تبقى جميع الانفعالات الغريزية ، وجميع الاستجابات المتناقضة ـ التي تنشط آنذاك ـ ضمن نطاق اللاشعور ، وعلى أهبة دائمة لتعكير التطور اللاحق للأنا غب البلوغ . وحين تبعث ظاهرة النضوج الجنسي البدنية حياة جديدة في التثبيتات الليبيدوية القديمة التي هجرت في الظاهر ، ينكشف أمر الجنسية كجنسية معاقة ، مجزأة ، متفككة الى دوافع غريزية ، متناقضة .

من المؤكد أن التهديد بالخصاء لا يتمخض على الدوام عن مثل هذه النتائج المخيفة في جنسية الصبي الصغير المتفتحة . فهذه المرة ايضاً يتوقف مبلغ الأضرار الحاصلة ، ومبلغ الأضرار التي أمكن تفاديها ، على علاقات **كمية** . ومهما يكن من أمر ، فإن جملة الوقائع هذه ينبغي ان تعد الخبرة الرئيسية في سني الطفولة ، وهي تثير اخطر مشكلات الطور الأول من الحياة ، كما أنها تشكل أغزر مصدر للاضطرابات المستقبلية . غير انها تسقط مع ذلك في لجة النسيان ، وحين نحاول في اثناء التحليل ان نعيد تكوينها ، يقابلها الراشد بريبية مطلقة . وقد ينكرها حتى ليأبى مجرد التلميح الى الموضوع ، وقد يبلغ من عماه العقلي أن يتنكر لأسطع الأدلة التي تقطع بوجود الواقعة المذكورة . فهو يزعم مثلاً ان اسطورة اوديب لا تمت بأية صلة فعلية الى السيرة التي أعاد التحليل بناءها ، وأن الحالة مغايرة بالمرة نظراً

الى ان اوديب كان يجهل انه قتل أباه وتزوج أمه . غير ان مريضنا يغفل عن أن تحريفاً كهذا كان محتماً كيما يُعطى الموضوعٍ شكله الشعري ، وأن ما من عنصر غريب قد دس على الاسطورة أصلاً ، وأن الأمر كله لا يعدو ان يكون معالجة بارعة لعناصر موجودة من قبل في الموضوعة . وما جهل اوديب إلا تصوير مشروع للاشعور الذي تغرق فيه الواقعة الاساسية بجملتها لدى الراشد . والحكم القسري الذي يتلفظ به وسيط الوحي والذي يبرىء او يفترض فيه ان يبرىء البطل ما هو إلا إقرار بحتمية القدر الذي يحكم على الابناء جميعاً بأن يعانوا عقدة اوديب . ولم يتوان بعض أتباع التحليل النـفسي[٤] عن التنويه بأن اللغز الذي تطرحه شخصية مسرحية اخرى ، نعني هاملت ، بطل شكبير المتردد ، قابل هو الآخر للحل بسهولة متى ما رد الى عقدة اوديب . فالامير الشاب يحجم ، بالفعل ، عن ان يعاقب في شخص انسان آخر ما يناظر رغباته الاوديبية الذاتية ، وعجز العالم الادبي بصفة عامة عن فهم هذه المسرحية ينمّ عن مبلغ تشبث بني البشر بكبتهم الطفلي[٥] .

وقد كان الفيلسوف الفرنسي ديدرو DIDEROT أوضح ، قبل اكثر من قرن من ظهور التحليل النفسي ، أهمية عقدة اوديب اذ أبان على النحو التالي الفارق الذي يميز العصور البدائية عن العصور المتحضرة : « لو ترك الهمجي الصغير وشأنه ، فبقي على كامل غباوته ، وجمع بين ضعف رشاد الطفل في مهده وبين عنف اهواء الرجل في الثلاثين من عمره ، لدق عنق ابيه وضاجع امه»[٦]. وأبيح لنفسي القول إنه لو لم يكن للتحليل النفسي إلا فضل اكتشاف عقدة

(٤) الاشارة هنا الى ارنست جونز ، تلميذ فرويد وصديقه الوفي ، الذي وضع دراسة بعنوان **اوديب وهملت** « م » .

(٥) ارجح الظن ان شكسبير اسم مستعار يحتجب وراءه عظيم مجهول . والشخص الذي يعد مؤلف أعمال شكسبير ، ادوارد دي فير ، ايرل اوف اوكسفورد ، كان قد فقد في طفولته أباه الذي اضمر له حباً واعجاباً ، وكان هذا الأب قد افترق عن أمه التي بادرت الى الزواج ثانية بعيد وفاته .

(٦) بالفرنسية في النص « م » .

اوديب المكبوتة ، لكان ذلك كافياً لإسلاكه في عداد المكتسبات الجديدة النفسية للجنس البشري .

اما لدى الفتاة فإن آثار عقدة الخصاء أقرب الى ان تكون من نسق واحد ، ولكنها ليست اقل عمقاً . فبديهي ان البنت الصغيرة لا حاجة بها لأن تخشى فقدان قضيبها ، غير أن رد فعلها ينبع من كونها لا تملكه . فمن البداية تحسد الصبي . وفي وسعنا القول إن تطورها كله يتم تحت سلطان الحسد القضيبي هذا . فهي تسعى بادىء الأمر بلا جدوى الى ان تقلد الصبيان ، ثم تصيب قدراً اكبر من التوفيق في محاولتها الظفر بتعويض ، وقد تؤدي بها جهودها الى اتخاذ موقف انثوي سوي . وعندما تحاول ، في اثناء الطور القضيبي ، ان تفوز ، نظير الصبي الصغير ، بأحاسيس لاذة بإثارتها اعضاءها التناسلية يدويا ، لا تتوصل على الدوام الى الظفر باشباع كافٍ، فتسحب عندئذ على شخصها بأسره الشعور بالدونية الذي استثاره لديها امتلاكها لقضيب ضامر . ولا تعتم ان تقلع عن الممارسات الاستمنائية وتنصرف عن الجنسية انصرافا تاماً في محاولة منها للهرب من كل ما يذكرها بتفوق شقيقها أو رفاقها الذكور .

وان أصرت الفتاة الصغيرة على رغبتها في ان تصير غلاماً ، فقد ينتهي بها الأمر، في الحالات القصوى ، الى الجنسية المثلية السافرة ، او تظهر لديها في الاحوال جميعاً سمات الطبع الذكوري وتختار مهنة من مهن الذكور الخ . وفي حالات اخرى تنفصل عن امها التي كانت تحبها فيما مضى ، لأنها لا تستطيع. تحت وقر الحسد القضيبي ، أن تغفر لها أنها انجبتها بغير ما تجهيز كاف . ويدفع بها سخطها الى هجران أمها والى اتخاذ موضوع آخر لحبها : ابيها . وعندما يفقد المرء كائناً يحبه ، فإن رد فعله الطبيعي ان يتماهى وإياه ، أن يحل محله ، ان جاز القول من الداخل . وهذه الأوالية هي التي تلجأ اليها البنت الصغيرة حينذاك . فهي تستبدل تعلقها بأمها بتماهيها واياها ، وتضع نفسها موضع أمها كما كانت تفعل دائما في ألعابها ، ولرغبتها في الحلول محلها لدى أبيها تطفق ببغض من كانت تؤثرها بحبها حتى ذلك

الحين ، وذلك لسببين : الغيرة والضغينة التي اثارها فيها حرمانها من القضيب . وقد تقوم علاقاتها الجديدة مع أبيها أول الأمر على أساس رغبتها في الاستحواذ على قضيبه ، غير أن نقطة الاوج لا تبلغها سوى رغبة اخرى : إنجاب طفل هدية منه،وشهوة الطفل هذه تحل محل حسد القضيب او تشتق منه على الاقل .

من المثير للاهتمام ان نلحظ كم تختلف العلاقات بين عقدة اوديب وعقدة الخصاء ، بل كم تتعارض ، لدى البنات والصبيان . فالتهديد بالخصاء يضع بالفعل ، كما تسنى لنا ان نرى ، حداً لعقدة اوديب لدى الغلام . اما البنت فتندفع ، على العكس ، الى هذه العقدة حينما تتبين عطلها من القضيب ، ولا تترتب محاذير كثيرة على بقاء المرأة في موقف اوديبي انثوي (وهو موقف اقترح بعضهم إعطاءه اسم عقدة الكترا) . وفي مثل هذه الحال تطمح في ان تلقى لدى زوجها مستقبلاً صفات ابيها وتكون على استعداد للرضوخ لسلطانه . اما رغبتها في امتلاك قضيب ، وهي في الواقع رغبة لا يشفى لها غليل ، فمن الممكن اشباعها ، ان أفلحت في تحويل حبها للعضو الى حب للرجل مالك هذا العضو ، تماما كما كانت حولت من قبل الحب الذي يوحي لها به ثدي الأم الى شخص هذه الاخيرة بأسره .

حين نسأل محللاً من المحللين ان يخبرنا عن أعصى البنى النفسية لدى مرضاه على تأثيره ، يجيبنا بلا توانٍ : لدى المرأة حسد القضيب ، ولدى الرجل موقف أنثوي حيال جنسه ، والشرط اللازم المفترض لهذا الموقف هو فقدان القضيب .

القسم الثالث
التقدم النظري

الفصل الثامن
الجهاز النفسي والعالم الخارجي

ان النظرات والفروض العامة التي عرضناها في فصلنا الأول قد تسنى لنا الوصول اليها بفضل العمل الوئيد والدقيق الذي اوردنا له مثالاً في القسم الثاني من هذا المؤلَّف .

ولنستسلم الآن لإغراء إلقاء نظرة على التقدم الذي اتاح لنا هذا العمل إحرازه ، ولنرَ ما الطرق الجديدة التي تنفتح من الآن فصاعداً امامنا . والشيء الذي قد يفجأنا كوننا قد اضطررنا في كثير من الاحيان الى التوغل الى ما وراء حدود علم النفس . فالظاهرات التي درسناها ليست من طبيعة سيكولوجية فحسب ، بل لها ايضاً جانب عضوي وبيولوجي ، وهذا ما يترتب عليه اننا ، في جهودنا لتشييد التحليل النفسي ، قد حققنا ايضاً كشوفاً هامة في مضمار علم الاحياء ولم يكن امامنا مناص من المصادرة على فورض جديدة تتصل بهذا العلم .

لكن لنلزم ، مؤقتاً ، مضمار علم النفس . فقد كنا أقررنا بأنه من المتعذر علمياً ان نقيم خطاً فاصلاً واضحاً بين الحالات السوية والشاذة. ومن ثم فإن كل تمييز لا يمكن ان يكون له ، رغم أهميته العملية ، سوى قيمة اعتبارية . وقد كان لزاماً علينا ان نكوِّن فكرة عن النفسية عن طريق دراسة اضطراباتها ، وما كان هذا بممكن لو كان لهذه الحالات المرضية ـ الاعصبة أو الأذهنة ـ علل نوعية تفعل فعلها على منوال أجسام' غريبة .

لقد قدمت لنا دراسة الاضطراب العابر الذي يطرأ اثناء النوم ، وهو اضطراب لا ضرر منه بل له دور نافع ، مفتاح الامراض النفسية

الدائمة والخطرة . وإننا لنؤكد ان علم نفس الشعور ما كان أقدر على فهم الاشتغال السوي للنفس منه على تفسير الحلم . ولقد اثبتت المعلومات الوحيدة المتاحة له ، أقصد معطيات الادراك الشعوري الذاتي ، تقصيرها عن إفهامنا تعدد الظاهرات النفسية وتعقُّدها ، وكذلك عجزها عن كشف العلاقات الرابطة فيما بينها وعن الاهتداء الى الغلل المحدِّدة للظاهرات المرضية .

وحين فرضنا وجود جهاز نفسي ، ذي امتداد في المكان ، جيد التكيف مع دوره ، ونامٍ بفعل مقتضيات الحياة ، ولا ينتج الظاهرات الشعورية إلا في نقطة خاصة وفي شروط محددة ، تأتى لنا ان نقيم علم النفس على أسس مشابهة للاسس التي يقوم عليها كل علم آخر، كالفيزياء مثلاً .

والمطلوب في مضمارنا العلمي ، كما في مضامير سائر العلوم الاخرى ، ان نكتشف خلف خصائص (كيفيات) الاشياء المدركة إدراكاً مباشراً شيئاً آخر أقل ارتهاناً بقابلية الاستقبال لدى اعضاء حواسنا وأقرب صلة الى ما يُفترض أنه واقع الأشياء بالذات . صحيح أننا لا نأمل في بلوغ واقع الأشياء هذا لأننا مكرهون ، بطبيعة الحال ، على ترجمة استدلالاتنا كافة الى لغة ادراكاتنا بالذات ، وهذه نقيصة حرم علينا الى الابد التحرر منها . لكن هنا بالذات تكمن طبيعة علمنا وحدوده . ومجرى الامور في علمنا هذا أشبه بمجراه في العلوم الفيزيائية فيما لو قلنا عنها : « لو كان لنا نظر ثاقب بما فيه الكفاية لاكتشفنا ان الجسم الصلب في ظاهره يتألف من جزيئات لها هذا الشكل او ذاك ، وهذا الحجم أو ذاك ، وهذا الوضع أو ذاك بالنسبة الى بعضها بعضاً » . على هذا النحو نسعى الى أن نزيد ، الى أقصى حد ممكن ، بوسائل صناعية ، مردود أعضائنا الحواسية ؛ غير أنه يخلق بنا ان نتذكر أن جميع هذه الجهود لا تعدل شيئاً في النتيجة النهائية . فالواقع سيبقى ابداً بحد ذاته « عصياً على المعرفة » . وكل ما يفيده العمل العلمي من الادراكات الحواسية الاولية هو اكتشاف ارتباطات وتعالقات قائمة في العالم الخارجي وقابلة ، بصورة من

الصور ، لأن تتكرر أو تنعكس في العالم الداخلي لفكرنا . وتتيح لنا هذه المعرفة ان «نفهم» بعض ظاهرات العالم الخارجي ، وان نتوقعها ، وفي بعض الاحيان ان نعدلها . وهذا ما نعمله ايضاً في التحليل النفسي . فقد تسنى لنا أن نكتشف بعض الطرائق التقنية التي تتيح لنا أن نسد الفجوات التي تظل قائمة في ظاهرات شعورنا ، ونحن نستخدم هذه المناهج التقنية كما يستخدم الفيزيائيون التجريب . وهكذا نستنتج عدداً من السيرورات التي هي في حد ذاتها « عصية على المعرفة » . ثم ندرج بعد ذلك هذه السيرورات في عداد السيرورات التي تقع تحت شعورنا . فحين نقول مثلاً : « هنا تسللت ذكرى لاشعورية » ، فهذا معناه أنه حدث شيء لا نتصوره ، ولكنه اذا ما بلغ شعورنا فليس يمكن وصفه إلا بهذه الكيفية او تلك .

من المؤكد ان حق استخلاص نتائج كهذه ، والقيام بتعميمات كهذه ، والمصادرة على صحتها ، يبقى في كل حالة خاصة خاضعاً للنقد . ولنقر بأنه يعسر للغاية في كثير من الأحيان الوصول الى قرار ، وهذا ما ينعكس في تعدد الآراء بين المحللين . وجدة المشكلة ، أي قلة التمرس ، هي المسؤولة عن ذلك جزئياً . غير أنه من العدل ان نلقي التبعة ايضاً على عامل خاص متصل بطبيعة المادة ذاتها . ذلك ان الأمر في علم النفس لا يتعلق على الدوام ، كما في الفيزياء ، بمواد لا توقظ إلا اهتماماً علمياً بارداً . ولا داعي لأن نسرف في العجب ان رأينا ، مثلاً ، امرأة محللة ، غير مقتنعة اقتناعاً كافياً بشدة الحسد القضيبي عندها ، تستهين بشأن هذا العامل لدى مريضاتها . غير ان مصادر الخطأ هذه ، الناجمة عن معادلة شخصية ، ليست لها اهمية كبيرة في خاتمة المطاف . فحين نتصفح مرجعاً قديماً في العلم المجهري نذهل لما كان يفرض من شروط ومطالب على الاشخاص الذين يستخدمون المجهر في زمن كانت لا تزال فيه هذه التقنية في أول عهدها . اما اليوم فلم يبق شيء من ذلك كله .

لن نقدم هنا صورة كاملة للجهاز النفسي ووظائفه . ولو حاولنا ذلك أصلاً لأربكنا كون التحليل النفسي لم يتسن له الوقت بعد لدراسة كل

وظيفة من وظائفه بقدر متساو من الاهتمام . فلنقنع اذن بتلخيص وافٍ لما قلناه في القسم الأول مًن مؤلَّفنا .

تتألف نواة وجودنا اذن من **الهذا** الدامس الذي لا يتصل اتصالاً مباشراً بالعالم الخارجي ، والذي لا نتوصل الى معرفته إلا بواسطة هيئة نفسية اخرى . وتعمل في داخل الهذا **الدوافع الغريزية** العضوية وتنجم ذاتها عن امتزاج قوتين بدائيتين : الايروس والتدمير ، بنسب متفاوتة . وتختلف هذه الدوافع الغريزية عن بعضها بعضاً تبعاً لصلتها بالاعضاء أو بمنظومات الاعضاء . وهدفها الوحيد إشباع نفسها عن طريق تغييرات في هذه الاعضاء تتمكن من إحداثها فيها بمساعدة المواضيع الخارجية. غير أن إشباعاً فورياً ومتهوراً ، كمثل ما يشتهي الهذا ، من شأنه في كثير من الاحيان أن يشعل فتيل منازعات خطرة مع الخارج وأن يفضي الى دمار الفرد المعني . فالهذا لا يحفل البتة بضمان المستقبل ويجهل القلق . وربما كان من الأصح القول إن الهذا ، وان كان قادراً على توليد عناصر القلق الحواسية ، فإنه لا يستطيع استخدامها . وتختلف السيرورات التي تقع لهذه العناصر النفسية المفترضة في الهذا أو تحدث فيما بينها (**السيرورات الاولية**) اختلافاً بيِّناً عن السيرورات التي آلف بيننا وبينها الادراك الشعوري في مجرى حياتنا العقلية والوجدانية . وفضلاً عن ذلك ، فإن قيود المنطق النقدية لا تؤثر البتة في ما يجري في الهذا ؛ وبالفعل ، يجبّ المنطق شطراً من هذه السيرورات ، ويحكم عليها بالبطلان ، بل ينزع الى إبطالها .

ان للهذا ، المنقطع عن العالم الخارجي ، عالمه الادراكي الخاص . فهو يستشعر بحساسية فائقة بعض التغيرات التي تطرأ في داخله ، وعلى الاخص تفاوتات توتر الانفعالات الغريزية ، وهي تفاوتات تأخذ طريقها الى الشعور باعتبارها انطباعات في سلسلة اللذة ـ الألم . حقيقةٌ أنه يصعب ان نعين ما الطرق وبمساعدة أي الاعضاء الحواسية الطرفية تحدث هذه الادراكات ، غير ان ثمة شيئاً واحداً يبدو محققاً ، وهو ان الادراكات الذاتية ، اي الانطباعات الحشوية

ومشاعر اللذة والألم ، تحكم الظاهرات في داخل الهذا حكماً استبدادياً . ويخضع الهذا لمبدأ اللذة الصارم ، ولكنه ليس وحده الذي يسلك هذا المسلك . إذ يفلح نشاط الهيئات النفسية الاخرى ، فيما يبدو ، في تعديل - لا في إلغاء - مبدأ اللذة ؛ ومن ثم تنطرح مسألة ذات اهمية نظرية فاصلة لم تجد لها حلاً بعد : متى وكيف يمكن التغلب على هذا المبدأ ؟ وإذ نعتبر أن مبدأ اللذة يقتضي خفض التوترات الناشئة عن الحاجات الغريزية ، بل زوالها في نهاية الأمر (أي النرفانا) نطرق مسألة العلاقات بين مبدأ اللذة وبين القوتين البدائيتين : الايروس وغريزة الموت ، وهي مسألة لم تأخذ طريقها إلى التوضيح بعد .

اما الهيئة النفسية الاخرى ، نعني **الانا** ، فتبدو لنا اكثر قابلية للمعرفة ، ويتراءى لنا اننا نتعرف فيها انفسنا بسهولة اكبر . وقد نمت بدءاً من طبقة الهذا اللحائية التي أعدت لتلقي التنبيهات واستبعادها ، فكان اتصالها بالخارج (**الواقع**) اتصالاً مباشراً . وينطلق الانا من الادراك الشعوري ليخضع لنفوذه مناطق أوسع فأوسع وطبقات أعمق فأعمق من الهذا ، وهو إذ يتشبث بتبعيته للعالم الخارجي يحمل علامة أصله غير القابلة للمحو ، نوعاً من « صنع في المانيا »(١) ان جاز القول . ووظيفته ، من وجهة النظر السيكولوجية ، ان يرقى بسيرورات الهذا الى مستوى دينامي اعلى (ربما بتحويله قدراً من الطاقة الحرة ، الطليقة ، الى طاقة مقيدة ، كما في الحالة القبشعورية) . أما الدور البنّاء للأنا فينحصر بأن يقيم بين المطلب الغريزي والفعل القمين بإشباعه نشاطاً عقلياً يسعى ، على ضوء الوضع القائم والخبرات السابقة وبالاستناد الى اختبارات تجريبية ، الى تقييم نتائج الخط السلوكي المقترح . على هذا النحو يتوصل الانا الى البت في ما اذا كان المشروع المزمع قميناً بأن يؤدي الى إشباع ، أم هل من الانسب إرجاؤه ، أم هل ينبغي قمع المطلب الغريزي وخنقه باعتباره محفوفاً بالمخاطر (**مبدأ الواقع**) . وكما أن الهذا لا يخضع إلا لداعي اللذة ،

(١) بالانكليزية في النص : MADE IN GERMANY « م » .

كذلك يتسلط على الانا هاجس الأمن . فمهمته ، التي أهملها الهذا فيما يبدو ، هي حفظ الذات . ويستخدم الانا احاسيس القلق والحصر نذيراً ينبهه الى كل خطر يتهدد سلامته . وبما أن الآثار الذاكرية قابلة لأن تصير شعورية مثلها مثل الادراكات ، وعلى الاخص اذا اقترنت بالرواسب اللفظية ، فإن احتمال خلط يقوم هنا ويكون من شأنه سوء إدراك للواقع . ويدفع الانا عنه خطر هذا الاحتمال بتأسيسه **امتحان الواقع** الذي ينتفي دوره احياناً في الاحلام بحكم مقتضيات حالة النوم . وتحيق بالانا ، في جهاده لصون نفسه في خضم قوى آلية طاغية ، أخطار تأتي في المقام الأول من الواقع الخارجي ، وكذلك من مصادر اخرى . والهذا ذاته مصدر لأخطار مماثلة عليه ، وذلك لسببين متباينين . اولاً ، من الممكن لقوى غريزية مسرفة الشطط ان تلحق بالانا أذى معادلاً لما قد تلحقه به « تنبيهات » خارجية مفرطة القوة . ثانياً ، ان التجربة تعلم الانا أن إشباع مطلب غريزي ، ليس بغير محتمل في حد ذاته ، قد يستثير رد فعل خطراً من جانب العالم الخارجي ، بحيث ينقلب المطلب الغريزي ذاته حينئذ الى خطر . على جبهتين يتعين اذن على الانا أن يصارع : فعليه ان يذود عن وجوده ضد عالم خارجي يهدده بالتدمير ، وضد عالم داخلي مجاوز للحد في مطالبه . وهو يستخدم ضد خصميه طريقة واحدة في الدفاع ، غير ان هذه الطريقة لا تدلل على نجع يذكر في مواجهة العدو الداخلي . وبحكم صلته الحميمة بهذا الخصم ووحدة الهوية التي كانت تجمعه وإياه في الأصل ، يعسر على الأنا غاية العسر الافلات من الأخطار الداخلية ؛ وحتى في حال نجاحه في إحباط هذه الاخطار بصورة مؤقتة ، فإنها تظل تتوعده .

رأينا كيف ان الأنا الذي يكون ضعيفاً وغير مكتمل النمو في الطفولة الاولى يصاب بضرر مستديم من جراء ما يبذله من جهد للافلات من الاخطار الملازمة لهذا الطور من الحياة . صحيح ان حماية الأهل تدفع عن الطفل الاخطار الخارجية، غير أنه يدفع ثمن هذا الأمان قلقاً وخوفاً من فقدان حب هؤلاء الأهل ، لأن فقداناً كهذا من شأنه ان يسلمه بلا حماية لجميع أخطار الخارج . ويؤثر هذا العامل تأثيراً

حاسماً في مآل الصراع حين يدخل الصبي في الموقف الاوديبي . ويستحوذ عليه تهديد الخصاء الذي يثقل بوطأته على نرجسيته بعد أن يكون تعضّد بمصادر بدائية . ويتضافر هذان التأثيران ، تأثير الخطر الواقعي المباشر وتأثير الخطر ذي الأساس السلالي المدَّخر في الذاكرة ، على حض الطفل على اتخاذ إجراءات دفاعية (الكبت بأنواعه) . غير ان هذا الدفاع ، وان أثبت نجعه بصورة مؤقتة ، يتكشف عن أنه غير وافٍ سيكولوجياً بالغرض لحظة يؤدي تنشيط الجنسية من جديد الى تعزيز المطالب الغريزية التي جرى استبعادها سابقاً . أما من وجهة النظر البيولوجية فسنقول إن الأنا يصطدم بإثارات الطور الاول للجنسية في زمن لم يكن فيه مناص من ان يقوده عدم نضجه الى الفشل . وفي رأينا ان تخلف نمو الأنا عن نمو الليبيدو هو الشرط الاساسي للأعصبة . فكيف لا نستنتج ، والحال هذه ، أنه من الممكن تفادي الاعصبة فيما لو جُنب الانا الطفلي هذا الامتحان ، أي فيما لو تركت جنسية الطفل تتفح بحرية ، كما هو الأمر لدى العديد من الشعوب البدائية ؟ ومن المحتمل ان تكون أسباب الامراض العصابية أشد تعقيداً مما نقول هنا ؛ وان يكن كذلك هو واقع الحال ، فإننا نكون قد أبرزنا على الاقل جزءاً أساسياً من جملة هذه الاسباب المعقدة . وعلينا ألا ننسى ايضاً التأثيرات السلالية الكامنة في موضع ما من الهذا ، في شكل لا نعرفه بعد، والتي يكون فعلها في الأنا في الطفولة الاولى اقوى منه في أي عهد آخر . ونحدس ، من ناحية اخرى ، ان مثل هذه المحاولة المبكرة لحجز الغريزة الجنسية ومثل هذا التحيز من جانب الانا الغض العود لصالح العالم الخارجي على حساب العالم الداخلي ، وهو تحيز نابع أصلاً من الحظر المفروض على الجنسية الطفلية ، لا بد ان ينعكس تأثيرهما حتماً على تطور الافراد الحضاري اللاحق . فالمطالب الغريزية التي يحال بينها وبين الاشباع المباشر تضطر الى سلوك مسالك اخرى تلقى فيها إشباعاً بديلاً ، وتصير عرضة بالتالي لاحتمال تجردها من طابعها الجنسي وارتخاء الروابط التي تربطها بالاهداف الغريزية الاولى . ولنخلص من ذلك الى أن شطراً كبيراً من ذخيرتنا الحضارية ، التي نعتز بها أيما اعتزاز، قد تكوّن على حساب الجنسية

وبنتيجة تقييد الدوافع الغريزية الجنسية .

لقد رددنا تكراراً ان الأنا يدين بأصله ، وكذلك بأهم صفاته المكتبسة ، لعلاقاته بالعالم الخارجي : فليس يعسر علينا اذن التسليم بأن حالات الانا المرضية ، أي الحالات التي يقترب فيها من جديد من الهذا ، تقوم على انقطاع الصلات الخارجية أو ارتخائها .وثمة واقعة تؤكد ذلك : فالخبرة السريرية تدل على وجود حافزين يتحكمان بنشوء الذهان : فإما ان يكون الواقع قد غدا لا يحتمل ولا يطاق ، وإما ان تكون الدوافع الغريزية قد عُضدت تعضيداً هائلاً ، مما يترك في الأنا ، بالنظر الى وجود المطالب المتنافسة للهذا وللخارج، آثاراً مماثلة . وكان من الممكن ان تكون معضلة الذهان بسيطة وواضحة فيما لو انقطعت صلة الأنا بالواقع انقطاعاً تاماً ، لكن هذا شيء نادر الحدوث ، وقد لا يحدث ابداً ، وحتى في الحالات التي تنأى غاية النأي عن واقع العالم الخارجي كما في الحالات الهلوسية الخلطية ((AMENTIA) ، يصرح المرضى ، عند شفائهم، أنه كان يقبع على الدوام ، في زاوية مخفية من عقلهم ، على حد تعبيرهم ، شخص سوي يشهد من مخبئه ، كما لو أنه مراقب محايد ، كل فصول الرواية المرضية . أفنحن في حل من الاعتقاد بأن الأمور تسير على هذا المنوال دواماً ؟ لست ادري ، غير أنه تتوفر لدي معلومات مماثلة بصدد أذهنة اخرى أقل صخباً .واني لأذكر حالة بارانويا مزمنة كان فيها المريض ، بعد كل سورة غيرة ، يكاشف المحلِّل بحلم يتضمن عرضاً حميماً للحادث لا تشوبه شائبة من الهذاء . وهكذا انجلت للعيان مفارقة شائقة : فعلى حين ان أحلام العصابي تكشف لنا في العادة عن غيرة لا يعيها في حالة اليقظة ، نجد ان هذاء حالة اليقظة لدى مريض ذهاني يصححه الحلم . وقد يكون مباحاً لنا الافتراض ان ما يجري في جميع الحالات المشابهة انما هو **انفلاق** نفسي .فبدلاً من موقف نفسي واحد ثمة موقفان : الأول سوي ويقيم للواقع اعتباراً ، والثاني يفصل الأنا عن هذا الواقع تحت تأثير الدوافع الغريزية ؛ والموقفان يتعايشان ، غير ان النتيجة تتوقف على قواهما النسبية، والشروط اللازمة لظهور ذهان تتوفر متى ما رجحت كفة الموقف اللاسوي . فإن انعكست العلاقة ، حدث الشفاء الظاهر من المرض

السيكوباتي . أما في الواقع فإن الافكار الهذائية قد ارتدت على اعقابها نحواللاشعور. ثم ان العديد من المشاهدات يبيح لنا ان نجزم بأن الهذاء كان موجوداً قبل تظاهره بزمن طويل .

نحن نقول اذن إنه يوجد في كل ذهان **انفلاق في الأنا** ، ولئن تمسكنا بهذه المسلمة فلأنها تجد ما يؤيدها في حالات اخرى اقرب الى الاعصبة ، وأخيراً في الاعصبة نفسها . وقد اقتنعت أنا نفسي بذلك اول الأمر فيما يتعلق بحالات التميمية FÉTICHISME . فهذاالشذوذ، الذي يمكن إدراجه في عداد الانحرافات ، يقوم كما هو معروف على كون المريض ـ وهو بصورة شبه دائمة رجل ـ يأبى الإقرار بعطل المرأة من القضيب ، إذ يشق عليه تحمل هذا العطل لأنه يبرهن له على امكانية خصائه هو ، ولهذا يرفض التسليم ، على الرغم مما اتاح له ادراكه الحواسي التحقق منه ، بتجرد المرأة من القضيب ، ويتشبث بالاعتقاد النقيض . غير ان الادراك الحواسي ، وإن أنكره المريض ، يفعل فعله فيه ، فلا يجرؤ هذا الاخير على الزعم أنه رأى قضيباً بالفعل . فماذا يفعل في هذه الحال ؟ يتخير شيئاً آخر ، جزءاً من الجسم او موضوعاً يعزو اليه دور هذا القضيب الذي لا يسعه عنه استغناء . وبصفة عامة يكون هذا الموضوع شيئاً وقع عليه نظر المريض التميمي حين كان يشاهد الاعضاء التناسلية المؤنثة، أو أي موضوع آخر يصلح لأن يكون بديلاً رمزياً عن القضيب . غير اننا نعدو الصواب لو اعتبرنا السيرورة المصاحبة لاختيار التميمة بمثابة انفلاق في الأنا . فهي بالاحرى تسوية تم التوصل اليها بمعونة نقل مشابه لعمليات النقل التي عودنا عليها الحلم . لكن ملاحظاتنا لا تقف عند هذا الحد . فالمريض اختلق لنفسه تميمة ليقضي على كل دليل على احتمال الخصاء وليفلت من ثم من خوف هذا الخصاء . فلو كانت المرأة تملك قضيباً نظير كائنات حية اخرى ، لما كان ثمة داع لأن يخشى المرء سلخ قضيبه منه . غير اننا نعاين لدى بعض التميميين خوفاً من الخصاء يشابه الخوف الذي نلقاه لدى غير التميميين والذي يستثير لديهم استجابات مماثلة . لهذا ينم سلوكهم عن رأيين متناقضين . فمن جهة اولى نراهم ينكرون الادراك الحواسي الذي أبان لهم عن فقدان المرأة للقضيب ، ومن الجهة الثانية

يعترفون بهذا الفقدان ويستخلصون منه نتائج صحيحة . ويستمر هذان الموقفان مدى الحياة من غير ان يؤثر واحدهما في الآخر . أفليس هذا تحديداً ما يسعنا ان نسميه انفلاق الانا ؟ ويسمح لنا هذا الوضع ايضاً بأن نفهم لماذا تبقى التميمية في الكثير الغالب من الاحيان ناقصة التطور . فهي لا تعيِّن كل اختيار الموضوع ، بل تفسح في المجال ، بقدر يزيد او ينقص،امام سلوك جنسي سوي ، بل قد يبقى دورها احياناً متواضعاً أو يكاد لا يفصح عن نفسه .

حذار من الافتراض أن التميمية حالة استثنائية من انفلاق الأنا ، إلا انها تتيح لنا فرصة ممتازة لدراسة هذه الظاهرة . فلنرجع الى الواقعة التي تقدم التنويه بها . وهي ان الانا الطفلي يعمد ، تحت ضغط العالم الواقعي ، الى التخلص بطريقة الكبت من المطالب الغريزية المشجوبة . ولنضف الى ذلك الآن ان الانا يرى في كثير من الاحيان نفسه ملزماً ، في الطور عينه من الحياة ، بأن يقاوم بعض مطالبات **العالم الخارجي** التي تحز ألماً في نفسه ، فيلجأ في مثل هذه الحال الى طريقة **الانكار** ليلغي الادراكات الحواسية التي تكشف له عن هذه المطالب . وحالات الانكار هذه متواترة الحدوث ، وليس عند التميميين وحدهم . وحيثما تأتّى لنا ان ندرسها ، بدت لنا أنصاف تدابير ، محاولات ناقصة لفصل الانا عن الواقع . والرفض يقترن دوماً بقبول ؛ فإذا بموقفين متعارضين، مستقلين واحدهما عن الآخر ، يقومان ، مما يؤدي الى انفلاق في الأنا ، ويتوقف هنا ايضاً المآل على أيهما ستتاح له شدة اكبر .

ان وقائع انفلاق الأنا ، كما تقدم بنا وصفها ليست بجديدة ، ولا بغريبة بالقدر الذي قد تتبدى به للوهلة الاولى . فاقتدار الفرد على أن يقيم مسلكاً محدداً من مسالكه على موقفين نفسيين مختلفين ، متعارضين ومستقلين واحدهما عن الآخر ، هو بالتحديد سمة مميزة للاعصبة ، إلا انه يجدر بنا أن نقول ان أحد الموقفين في مثل هذه الحال يصدر عن الأنا ، بينما الموقف المعاكس ، الموقف الذي يجري كبته ، يصدر عن الهذا . والفارق بين الحالتين طوبوغرافي او بنيوي في جوهره ، وليس من اليسير علينا دوماً أن نقرر لأي الاحتمالين تكون الغلبة في كل حالة خاصة . ومع

ذلك فإن بينهما طابعاً مشتركاً هاماً : فالأنا ، سواء أدفعت به رغبته في اتقاء خطر ما الى إنكار جزء من العالم الخارجي أم الى قمع مطلب غريزي من الداخل ، لا يصيب في أي من الحالين ، ورغم كل جهوده الدفاعية ، نجاحاً تاماً ، مطلقاً . فثمة موقفان متعارضان يظهران دوماً ويفضيان كلاهما ـ الموقف الاضعف الذي أحبط وكذلك الموقف الآخر الذي لم يحبط ـ الى تكوين تعقيدات نفسية . ولنضف اخيراً ان ادراكاتنا الشعورية لا تسمح لنا بأن نعرف إلا شطراً زهيداً من هذه السيرورات .

الفصل التاسع
العالم الداخلي

الطريقة الوحيدة المتاحة لنا لتقديم لمحة عامة عن جملة معقدة من الظاهرات المتزامنة هي أن نصفها على حدة وعلى التوالي ، ومن هنا فإن العيب الذي يشوب عرضنا هو تبسيطه الاحادي الجانب ، وهو بحاجة من ثم الى ان يُستكمل وينقح ، أي يُصحح .

قلنا ان الأنا يتوسط بين الهذا والعالم الخارجي ، فيلبي مطالب الأول ويستقبل ادراكات الثاني الحواسية ليستخدمها في صورة ذكريات ، ويجد نفسه اخيراً وهو الحريص على صون ذاته ، مكرهاً على اتقاء شر المطالب المشتطة التي تحاصره من كلا الجانبين المتباينين . وفي كل ما يتخذه من قرارات يخضع لايعازات مبدأ لذة معدل . غير أن هذه الصورة التي نقدمها عن الأنا لا تصدق إلا حتى نهاية الطفولة الاولى (اي حوالي سن الخامسة) . وعندئذ يطرأ تغير هام : فثمة شطر من العالم الخارجي يُهجر ، جزئياً على الاقل ، كموضوع ويُدمج (بواسطة التماهي) في الأنا ، أي يصير مذّاك فصاعداً جزءا من العالم الداخلي . وتواصل هذه الهيئة النفسية الجديدة الاضطلاع بالوظائف التي كانت موقوفة فيما سبق على بعض أشخاص العالم الخارجي ؛ فتراقب الأنا ، وتصدر اليه اوامر ، وتوجهه وتهدده بالعقاب ، تماماً كالوالدين اللذين نابت منابهما . ونحن نطلق على هذه الهيئة اسم **الانا الاعلى** ، ونستشعرها ، وهي تؤدي دورها كقاض ، على انها **ضميرنا** . ومما يلفت النظر ان الانا الاعلى كثيراً ما يدلل على صرامة تتجاوز صرامة الوالدين الحقيقيين . هكذا نراه لا يكتفي بمحاكمة الانا على افعاله ، بل كذلك، وبالقدر نفسه ، على خواطره وعلى

نياته التي لم توضع موضع تنفيذ والتي يبدو انه على علم بها . ولنستذكر ان بطل أسطورة اوديب استشعر نفسه مسؤولاً عن أفعاله وعاقب ذاته ، على الرغم من ان القدر المحتوم الذي أعلن عنه وسيط الوحي كان يفترض فيه ان يبرئه في نظر نفسه كما في نظرنا . وفي الواقع، ان الأنا الاعلى وريث عقدة اوديب ولا يقوم إلا بعد تصفية هذه العقدة . وصرامته المفرطة لا تحاكي نموذجاً واقعياً ، بل تناظر شدة الكفاح الدفاعي الموجه ضد إغراءات عقدة اوديب . ويحدس الفلاسفة والمؤمنون بهذه الواقعة حين يؤكدون ان التربية تعجز عن بث الحس الخلقي في الناس ، كما تعجز الحياة في المجتمع عن إكسابهم إياه ، لأنه ينبع من مصدر أعلى .

وما دام الأنا يعمل بالتوافق مع الأنا الاعلى ، فمن العسير التمييز بين تظاهرات كل منهما ، غير ان كل توتر وكل سوء تفاهم يمكن ادراكه بوضوح . والعذاب الذي يسببه وخز الضمير يناظر بدقة خوف الطفل من احتمال فقدان الحب ، هذا الخوف الذي نابت منابه السلطة الخلقية . ثم إن الأنا حين يفلح في مقاومة إغراء اقتراف عمل يشجبه الأنا الاعلى يعلو اعتباره في نظر نفسه ويعظم اعتزازه بذاته ، كما لو أنه حقق كسباً ثميناً . على هذا النحو يمضي الأنا الاعلى، وان صار جزءاً من العالم الداخلي، في الاضطلاع امام الأنا بدور العالم الخارجي . ويمثل الأنا الاعلى للفرد طوال حياته أثر طفولته ، والعناية والتربية اللتين تلقاهما ، وتبعيته لوالديه ؛ ولنضف إن هذه الطفولة تمتد عند اكثر الناس من خلال الحياة العائلية . ولا تؤخذ في الحسبان هنا الصفات الشخصية للوالدين وحدها ،بل كذلك كل ما أثر فيها تأثيراً ثابتاً، ومشابها ، ومطالب الوسط الاجتماعي والطبائع والتقاليد العرقية . واولئك الذين تستهويهم التعميمات والتمييزات المرهفة سيقولون ان العالم الخارجي الذي يتحرك فيه الفرد ، بعد افتراقه عن اهله ، يمثل قوة الحاضر ، وإن الهذا عنده ، بميوله الموروثة ، يمثل الماضي العضوي ، وإن اناه الاعلى ، الوافد الجديد ، يمثل قبل كل شيء كل الماضي الحضاري الذي يتعين على الطفل ان يحياه مجدداً في سني طفولته القصيرة . ولكن يندر ان تكون تعميمات كهذه صائبة في الاحوال جميعاً . فمن المحقق ان قسماً من المنجزات الحضارية قد خلف اثراً في الهذا ذاته ،

حيث يلقى الكثير مما يأتي به الانا الاعلى صدى ، ثم إن خبرات عديدة يحياها الطفل يكون لها أصداء اقوى ان كانت تكرر خبرات سلالية سحيقة القدم . «وما اورثك اياه الاسلاف ، عليك باكتسابه ان كنت تريد امتلاكه»[١]. على هذا النحو يكفل الانا الاعلى لنفسه موقعاً متوسطاً بين الهذا والعالم الخارجي ، فيجمع في ذاته تأثيرات الحاضر والماضي . ويمكننا ، فيما يبدو، ان نعاين في نشوء الانا الاعلى مثالاً على الكيفية التي ينقلب بها الحاضر ماضياً ..

---

(١) غوته : **فاوست** ، القسم الأول .

الفهرس

من منشورات دار الطليعة

مؤلفات سيغموند فرويد

- مدخل الى التحليل النفسي
- نظرية الاحلام (طبعة ثانية)
- ثلاثة مباحث في نظرية الجنس (طبعة ثانية)
- الحياة الجنسية
- علم ما وراء النفس (طبعة ثانية)
- الكف ، العرض ، الحصر
- الحلم وتأويله (طبعة رابعة)
- مستقبل وهم (طبعة ثالثة)
- قلق في الحضارة (طبعة ثالثة)
- الهذيان والأحلام في الفن (طبعة ثانية)
- إبليس في التحليل النفسي (طبعة ثانية)
- مساهمة في تاريخ حركة التحليل النفسي (طبعة ثانية)
- التحليل النفسي للهستيريا : حالة دورا
- حياتي والتحليل النفسي
- مسائل في مزاولة التحليل النفسي
- الطوطم والحرام
- الانا والهذا

التحليل النفسي لرهاب الاطفال : هانز الصغير

KMH

سلسلة « السياسة والمجتمع »

- **معذبو الأرض** (طبعة رابعة)	فرانز فانون
- **قضايا علم السياسة العام** (طبعة ثانية)	د.محمد فايز عبد اسعيد
- **الحرية في الدولة الحديثة**	هارولد لاسكي
- **العلاقات الدولية**	دانيال كولار
- **العالم الثالث والتحدي التكنولوجي الغربي** : الاستقطاب الدولي الغربي وتطور التكنولوجيا الصناعية للعالم الثالث ١٩٧٠ ـ ١٩٨٠	د.محمد عبد الشفيع عيسى
- **التنمية المفقودة** : دراسات في الأزمة الحضارية والتنموية العربية (طبعة ثانية)	د. جورج قرم
- **الشخصية العربية - الاسلامية والمصير العربي**	هشام جعيط
- **التطور اللامتكافىء** : دراسات في التشكيلات الاجتماعية للرأسمالية المحيطية (طبعة رابعة)	د. سمير امين
- **الطبقة والأمة في التاريخ وفي المرحلة الامبريالية** (طبعة ثانية)	د. سمير امين
- **تطور الفكر الماركسي** : عرض ونقد (طبعة سادسة)	د. الياس فرح
- **التغير الاجتماعي** بين علم الاجتماع البرجوازي وعلم الاجتماع الاشتراكي (طبعة رابعة)	د. محمد احمد الزعبي
- **الاجتماع والماركسية**	عبد الفتاح ابراهيم
الاستراتيجية الطبقية للثورة (طبعة ثانية)	جورج طرابيشي

علم النفس

- **حقول علم النفس :** — د. علي زيعور ود . مريم سليم
- **مدخل إلى ميادين علم النفس ومناهجه** (طبعة ثانية) — د. كمال بكداش ود. رالف رزق الله
- **أصول الطب النفساني** — د. فخري الدباغ
- **غسل الدماغ** — د. فخري الدباغ
- **الأنا واواليات الدفاع** — آنا فرويد
- **الفحص النفساني** : مبادىء الممارسة النفسانية ، تقنياتها ، خطواتها ، اشكالاتها . (طبعة ثانية) — د. مصطفى حجازي
- **الأحداث الجانحون** : دراسة ميدانية نفسانية اجتماعية (طبعة ثالثة) — د. مصطفى حجازي
- **الاتصال الفعال في العلاقات الانسانية والادارة** — د. مصطفى حجازي
- **الانسان والجنون** . مذكرات طبيب امراض عقلية (طبعة ثانية) — اشتيفان بنديك
- **المازوخية** — ساشا ناخت
- **علم نفس الحاسة السادسة** ، نحو برهان وتفسير علميين للظاهرات الباراسيكولوجية وفوق الطبيعية (طبعة ثالثة) — شيلا اوستراندر ولين شرودر
- **ذكاء الاطفال من خلال الرسوم :** تنسيق جديد لاختبار «رسم الرجل» دراسة تجريبية — د. نعيم عطية

قضايا المرأة

- **محاضرات حول تحرر النساء** — الكسندرا كولونتاي
- **تحرر المرأة العاملة** (طبعة ثالثة) — الكسندرا كولونتاي
- **المرأة العربية وقضايا التغيير** بحث في تاريخ القهر النسائي (طبعة ثانية) — د.خليل احمد خليل
- **نقد مجتمع الذكور** — روجيه غارودي، وآخرون
- **المرأة المدجنة** — جرمين غرير

١٠٣٥ / ٨٦ / ٣٠٠٠

هذا الكتاب

« مختصر التحليل النفسي » هو درس فرويد الأخير لأنه كتبه قبيل وفاته بأشهر قليلة . وهو يقدم أوفى خلاصة للتحليل النفسي ، مذهباً وطريقة علاجية ، ويُمثل أداة عمل لا غنى عنها للمبتدىء في الدراسة النفسية كما للضليع .

يدرس القسم الأول من هذا الكتاب طبيعة النفسية البشرية ، ويُحلّل الجهاز النفسي ويضع خلاصة في نظرية الغرائز ويعرض لتطور الوظيفة الجنسية ويُحدّد الكيفيات الشعورية واللاشعورية للحياة النفسية .

أما القسم الثاني ، وهو ذو طابع عملي ، فيعرض تقنية التحليل النفسي ، ويضرب مثالاً مفصلاً للمعالجة التحليلية النفسية .

وفي القسم الثالث والأخير ، يحاول أن يحصد بعض النتائج النظرية وأن يوضح علاقة الجهاز النفسي بالعالم الخارجي والداخلي للأنــا .

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

الثمن : ٢٤ ل.ل.
او ما يعادلها